تشارلز ديكنز

آمال كبار

رواية

ترجمة

إسماعيل كامل

الكتاب: آمال كبار (رواية)

الكاتب: تشارلز ديكنز

ترجمة: إسماعيل كامل

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية " ناشرون"

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ديكنز ، تشارلز

آمال كبار (رواية) / تشارلز ديكنز, ترجمة: إسماعيل كامل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٤٤ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٦٩٧ / ٢٠٢٠

آمال كبار

رواية



الفصل الأول

لما كان اسم عائلة والدي "بيرب" وأسمى الأول "فيليب" فلم يكن في وسع لساني الصغير أن يخلق من الإسمين شيئاً أطول من كلة "بيب" وللك سميت نفسي "بيب" ثم أطلق على اسم "بيب"... ولما كنت قد فقدت كلا والدي في طفولتي فقد تولت تربيتي أختى مسز جوجارجري التي تزوجت من الحداد.

وكانت بلدتنا تنضح بالرطوبة. على مقربة من النهر ومبعدة غشرين ميلا من البحر.. وأول ما تعيه ذاكرتي: عصر بارد رطب.. حوالي المساء، وكنت واثقاً إذ ذاك أن ذلك المكان العاصف الذي يكسوه الحشائش الفجة إنما هو فناء كنيسة، وأن والدي ووالدتي وأخواتي قد قضوا ودفنوا في هذا الفناء، وأن المفازة الحالكة المنبسطة أمام فناء الكنيسة هي المستنقعات، وأن المفازة الحالكة المنبسطة أمام فناء الكنيسة هي المستنقعات، وأن ذلك الخط المنخفض اللجيني.. الذي يلي المستنقعات هو النهر، وأن المكان القصى الذي تتدفع منه الرياح هو البحر، وأن الصبي الصغير الذي نشأ يخشى ذلك كله ويهم بالبكاء هو "بيب"... أي أنا.

وصاح صوت مروع:

– أمسك ضجيجك.

بينما أندفع رجل من بين القبور واردف قائلا:

– ألتزم السكون أيها الشيطان الصغير وإلا قطعت رقبتك.

وكان رجلاً مخيفاً يرتد ملابس رمادية ويطوق ساقه حديد ثقيل، رجلاً حاسر الرأس ذا حذاء ممزق ويربط حول رأه خرقة قديمة. وكان يعوج في مشيته ويرتعد وكانت أسنانه تصطك في رأسه وهو يمسك بذقني، فتوسلت إليه مرعوباً.

– أوه لا تقطع عنقي يا سيدي... أضرع إليك ألا تفعل ذلك يا سيدي فقال:

– أخبرني بأسمك... هيا.

– بيب يا سيدي، بيب.

– مرة أخرى... أفصح.

– بيب يا سيدي، بيب.

– أرنا أين تقيم. أشر إلى المكان.

فأشرت إلى حيث تقع قريتنا... على بعد ميل أو أكثر من الكنيسة. وبعد أن تأملني أجل لحظة قلبني رأساً على عقب ثم أفرغ جيوبي، ولم يكن بها سوى كسرة من خبز فأخذها وراح يلتهمها في شراهة ثم قال وهو يلعق شفتيه:

– أنت أيها الكلب الصغير!! ياالخديك الكتنزين!

وأنا واثق أنهما كانا مكتنزين رغم أنني كنت في ذلك الحين أقل من الحجم الطبيعي لسني وغير قوي.. وسألني الرجل أين والدي ووالدتي فلما

أشرت إلى شواهد القبور سألني مع من أعيش، فأخبرته أنني أقم مع أختي... زوجة جو جاجري الحداد_ وما إن سمع كلمة الحداد حتى تطلع إلى رجليه ثم إلى. وأمسك بكلتا ذراعي ثم أمرني أن أجيئه في الصباح التالي الباكر– عند الطابية القديمة– بمبرد وبعض الطعام، وإلا فإنه سينتزع قلبي وكبدي!! كما أمرني أن لا أنطق بكلمة واحدة مما سمعته جميعاً ثم أردف يقول:

– أنا لست وحدي ما تظنني... بل يختفي شاب في قرارتي... وأنا أعد بالنسبة إليه «ملاكاً» وهذا الشاب يسمع الكلمات التي أتفوه بها وله طريقته الخفية الخاصة به في الأنقضاض على أي صبي وعلى قلبه وكيده.. وعبثا يحاول أي صبي أن يختفي من ذلك الشاب! فوعدت أن آتيه بالمبرد وبما أستطيع من لقيمات ثم رجوت له ليلة طيبة... وما لبث أن مشة يعرج ناحية جدار الكنيسة الواطيء ثم تسلقه واستدار إلى.. ولما رأيته يستدير يممت بوجهي شطر البيت مستفيداً من ساقي خير أستفادة.

الفصل الثاني

كان أخي مسز جو جارجري تكبرني بعشرين عاماً. فارعة الطول بادية العظام.. غير حسناء أشتهرت فيما بينها وبين جيرانها بأنها انشأتني بيدها! وحاولت إذ ذاك أن تدرك نفسي معنى ذلك الإصطلاح... ولما كنت أعلم أن لها يداً صلبة ثقيلة وأنها أعتادت أن تنال بها زوجها بمثل ما تنالني، فقد ظننت أن جو جارجري وأنا قد تربينا بعصاها "مع أن المقصود أنها كانت ترضعني من زجاجة الرضاعة. بيدها.. بعد موت والدتي".

أما جو فكان رجلاً جميل المحيا ذا شعر خفيف البياض وعينين زرقاوين. كان شخصاً معتدل المزاج طيب السريرة عزيزاً لدي..

ولما عدوت إلى المنزل من فناء الكنيسة- كان دكان جو للحدادة الملاصق لمنزلنا قد أغلقت أبوابه، وجلس جو وحده في المطبخ، ولما كنت وجو زميلي عناء وعذاب، فقد أبلغني أن أختي خرجت أثنتي عشرة مرة في البحث عني وقد حملت معها عصاها..ز وفجأة شاهدها قادمة فنصحني أن أقف حلف الباب، وسرعان ما عملت بنصيحته، ثم أقتحمت أخت الباب، فلما وجدت خلفه ما يحول دون فتحه جدست السبب في الحال ثم أنهالت علي بعصاها، وأختتمت بالقائي على جو الذي بلغ من أغتباطه لمسكى بأية وسيلة أن دفعني إلى ركن المدخنة "الموقد" ثم أسرع يحميني هناك بساقه الضخمة. وقالت مسز جو وهي تضرب الأرض بقدومها:

- أين كنت أيها القرد الصغير؟ قل لي بلا لف أو دوران. ماذا كنت

تعمل لتجعني أقضي حياتي في خوف وقلق عليك وإلا جررتك من ذلك الركن ولو كانت لك أضعاف قوتك، وكانت لجو أضعاف قوة آل جارجري.

فقلت وأنا أبكي وأدلك جسمي:

–كنت في فناء الكنيسة..

فردت قائلة:

– قناء الكنيسة؟ لولاي لكنت مدفونا في لك الفناء منذ زمن بعيد مستقراً فيه للآن...

ثم أنهمكت في إعداد معدات الشاي وبعد ذلك مسحت رغيفاً بالزبد ثم قطعت منه شريحة سميكة عادت تقطعها نصفين.. فأخذ جو أحدهما وأخذت أنا الثاني.

وعلى الرغم من أنني كنت جائعاً فأنني لم أجرؤ على ألتهام شريحتي إذ كان واجباً أن أحتفظ بشيء لصاحبي المخيف وحليفه. ذلك الشاب الذي يفوقه إرعاباً.. فأنتهزت فرصة أن كان جو منصرفا عني فوضعت خبزي وزبدي في ساق سروالي... وقد ذهل عندما رأى شريحتي تختفي فجأة وحسبني قد ابتلعها كلها لقمة واحدة، وكذلك أعتقدت أختي أن هذا هو الحال فألحت أن تعطيني جرعة كريمة من دواء كريه يدعي «ماء القار» صبتها في خلقي صبا..

وتآزرت معرفتي الآثمة بأنني أسطو على مستر جو مع الحاجة إلى أن أبقى إحدى يدي على خبزي وزبدي باستمرار أينما جلست أو مشيت

فكاد يجنني ذلك التآزر.. ولحسن الحظ وفقت في التسلل خفية ووضعهما في مخدع نومي.

ولما سمعت سجين آخر هارب، فقد هرب سجين في الليلة الماضية من سجن السفينة فأطلقوا البنادق تحذيراً منه... ويبدو الآن أنهم يحذرونا من غيره.

وظللت ألقى كثيراً من الأسئلة عن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وعن سجون السفن إلى أ نفد صبر أختي فقالت لي إن الناس يلقون في سجون السفن لأنهم قتلوا أو سرقوا أو زيفوا وأنهم بدأوا دائماً بإلقاء الأسئلة "كما أفعل" ولما كنت أصعد الدرج إلى مخدعي في الظلام طفقت أفكر مرعوب القلب في كلماتها وتبين لي أنني كنت في طريقي إلى السجون لأنني بدأت بالقاء الأسئلة ولأنني أهم بسرقة مسز جو! وعانيت ليلة ليلاء مليئة بالأحلام المفزعة، وما إن أنبثق الفجر حتى تسللت إلى الكيلار الذي كان زاخراً بالمؤن لمناسبة عيد رأس السنة.

سرقت خبزاً وقطعة جافة من الجبن وحوالي نصف برطمان من الحلوى وبعض البراندي من قارورة من الفخار بعد أن خففت ما بها من إبريق في صيوان المطبخ كما سرقت عظمة يكسوها بعض اللحم وقطعة جميلة من فطير محشو بلحم خنزير ظناً مني أنه ليس لأستعمال قريب ولذلك لن تتفقده أختي بعض الوقت، وبعد أن أخذت مبردا من بين أدوات جو في مصنعه، عدوت نحو المستنقعات التي يعلوها الضباب..

كان صباحاً قارساً تجمدت فيه المياه.. غاية في الرطوبة.. وكان يعلو

المستنقعات سحاب بلغ من كثافته أن خيل لي أن كل شيء يحاول الأنقضاض علي! ويممت نحو النهر، ولكني مهما أسرعت الخطى فأنني لم أقو على تدفئة قدمي. كنت أعرف طريقي إلى «الطابية»، ولكن لأرتباكي بسبب السجاب. رأيت نفسي أخيراً توغلت أكثر من اللازم نحو اليمين فكان علي– تبعا لذلك– أن أكر عائدا بمحاذاة الشاطيء، وسرعان ما عبرت خندقا– ثم رأيت رجلاً جالساً قبالني وقد أولاني ظهره، وعقد ذراعيه على صدره وحنى رأسه الذي أثقله النوم.

وحسبته يزداد سروراً عندما أباغته بافطاره– على غير ما يتوقع– ولذلك تقدمت في هدوء ثم لمست كتفه وسرعان ما وثب عالياً.. لم يكن ذلك الرجل نفسه. وإنما كان رجلاً آخر!.. ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يرتدي ملابس خشنة رمادية اللون، وحول ساقه قيد حديدي ضخم. وكان أعرج ترتجف وكان طبق الأصل من الأخر فيما عدا أنه لم يكن له نفس الوجه، وقد شتمني وضربني ضربة أخطأتني ثم أنطلق يعدو نحو السحاب. فقلت في نفسي وأنا أحس قلب يثب عندما تعرفت عليه:

– إنه الشاب.

ولا بد أنني نت أشعر بالألم في كبدي كذلك لو عرفت أين موضعه، وما لبثت أن بلغت «الطابية» بعد ذلك حيث كان الرجل الحقيقي الذي كان ينتظرني.. وكان مروع البرودة، يتجلى الجوع الشديد في ناظريه، فما إن فتحت جعبتي وأفرغت جيوبي حتى أنشأ يأكل بسرعة شديدة.. ولكنه كان ينقطع عن الطعام ليجرع بعض البراندي. وأرتعدت أوصاله وهو

يلتهم الحلوى والخبز والجبن والفطائر المحشوة بلحم الخنزير.. كلها معا وهو يحملق غير مصدق، كما كان كلها معا وهو يحملق غير مصدق، كما كان يتوقف أحياناً ليتنصت، وفجأة قال:

– ألست شيطاناً صغيراً مخادعاً؟ ألم تأتني بأحد معك؟

– كلا يا سيدي.. كلا!

– حسناً. أنا أصدقك. ولكنك لن تعدو أن تكون في الحقيقة جروا ضارياً صغيراً، لو أنك ساعدت في حياتك على أقتناص رجل منكود مثلي!..

وبينما كان في جلسته الشرهة يتناول الفطير خفية، رحت أحدثه بخوفي من ألا يترك بعض الفطير للشاب الآخر. فأجابني بما يشبه ضحكة فظة أن الشاب ليس في حاجة إلى طعام ما..

فقلت: إنني خلته يعدو في حاجة للطعام وإنني رأيته على التو في مثل ملابسه وبالقيد الحديدي حول ساقه ثم أشرت إلى حيث قابلته، وعندئذ سألني مهتاجاً عما إذا كان بالرجل رضوض على ةجنته اليسرى. ولما رددت بالإيجاب أمرني أن أريه الطريق إليه ثم أخذ معه المبرد وأقتعد الحشائش المبللة وهو يبرد قيده كرجل جن جنونه،ولما خفت أن أكون قد تغيبت طويلاً عن البيت، وتسللت وغادرته مقبلاً على قيده.

الفصل الثالث

وكنت أتوقع كثيراً أن أجد أحد رجال البوليس بالمطبخ في أنتظار القبض علين ولكن لم يكن ثمة شرطي فحسب وإنما لم تكن السرقة قد أكتشفت كذلك.

كانت مس جو منهمكة جداً في إعداد المنزل لأفراح ذلك اليوم، إذ كنا سنتناول عشاءاً فاخراً مكوناً من ساق خنزير وخضر وزوجين من الدواجن المحشوة.. وكانت الحلوى لذيذة قد أعدت في صبيحة الأمس، وها هي حلوى البودنج تغلي على النار.. وفي نفس الوقت ركبت مسز جو ستائر بيضاء ورفعت الأغطية عن حجرة الأستقبال عبر الممر، وكانت لا ترفع عادة في غير ذلك الوقت، ولقد كانت مسز جو ربة منزل غاية في النظافة ولكن كان لها فن خاص في جعل نظافتها اكثر إقلاقاً للراحة من القذارة نفسها!

وكان مستر ووبسل كاتب الكنيسة– مدعوا للعشاء معنا. وكذلك مستر هبل– صانع العجلات– ومسز هبل واعم بمبلشوك "عم جو" ولكن مسز جو كانت تدعوه عمها، وكان تاجر أغلال مبسوط الحال، ويقيم في أقربمدينة للقرية ويسوق بنفسه عربته الخفيفة الصغيرة.. وكان الغداء في منتصف الساعة الثانية لما عدت وجو إلى المنزل من الكنيسة وجدنا المائدة معدة ومسز جو مرتدية ملابسها والعشاء مجهزاً والباب الخارجي مفتوحاً لدخول الضيوف، وكل شيء غاية في الأبهة.. ومع ذلك لا كلمة واحدة

عن السرقة! وأنقضى الوقت دون أن يجلب لي معه راحة مشاعري. وقدم الضيوف المدعوون.

قال العم بمبلشوك وهو رجل ضخم يتنفس بصعوبة.. في منتصف العمر. بطيء متشاقل. ذو فم أشبه بالسمكة. خابي العينين. منتصب الشعر أصفره:

– لقد جئتم– تحية العيد– جئتك يا سيدتي بزجاجة نبيذ أبيض. وهكذا كان يقدم نفسه في كل عيد من أعياد رأس السنة: بنفس الكلمات تماماً وهو يحمل الزجاجتين كمن يحمل الأثقال.. كما كانت مسز جو تجيبه في كل عيد بمثل ما أجابته هذه المرة قائلة:

– أوه: يا عمي بمبل. شوك.. هذا جميل منك!

وكان يرد عليها كما رد الآن:

– أنه لا يعدو ما تستحقين.. والآن هل كلكم مبسوطون؟ وكيف حال البنس؟ "يعنيني أنا".

وكنا نتعشى في تلك المناسبات في المطبخ ثم نعود إلى حجرة الأستقبال لنتناول البندق والبرتقال والتفاح. وكنت وسط هذه الجماعة الطيبة أشعر بزيف مكاني، حتى وإن لم أكن سطوت على الكيلار. لا لمجرد أنني كنت معصوراً عند زاوية حادة من زوايا المائدة وقد ذغطت المائدة صدري وضغط مرفق بمبلشوك إحدى عيني. ولا لمجرد أنني لم يرخص لي بالتكلم "ولم أكن أود التكلم" ولا لأنهم كانوا ينعمون علي بالأجزاء العظيمة من الدواجن وبمفاصل الخنزير الخافية. كلا ما كان يهمني ذلك لو أنهم كانوا

يعتبرون الفرصة ضائعة إن لم يفلحوا في جعلي هدف حديثهم من حين لآخر وفي جرح مشاعري؟

بدا ذلك بمجرد أن جلسنا للعشاء فقد تلا مستر ووبسل صلاة قصيرة أنتهت بأمل أن نكون معترفين حقاً بالجميل، وعندئذ تفرست أختي في ثم قالت في صوت معنف:

– أتسمع ذلك؟ أعترف بالجميل!

وقال مستر بمبلشوك:

ذسأعترف خصوصاً يا صبي بجميل من ربوك باليد.

وكان مركز جو ونفوذه يزدادان ضعفاً "لو أمكن" عندما يكون ثمة ضيوف عما هما عليه في غير وجودهم ولكنه كان يساعدني دائماً ويسرى عني ما أستطاع بأحدى طرقه، وكان يفعل ذلك في أثناء العشاء بأن يمدني بالمرق إن وجد.. ولما كان المرق كثيراً في ذلك اليوم، فقد أغترف جو لصحني حوالي نصف رطل.

وقالت مس هبل لأختي رائية:

– لقد كان لك بمثابة دنيا عناء يا سيدتي!

فرددت أختي:

– عناء؟ عناء؟

ثم دخلت في قائمة مروعة لكل الأمراض التي أبتلتني، وكل حالات الأرق التي أصابتني، وكل الأماكن الشاهقة التي ترديت منها والمنخفضات

التي تدحرجت إليها، وكل الإصابات التي أوقعتها بنفسي، وكل المرات التي تمنت فيها لو كنت من سكان القبور.. فكنت أرفض بعناد تحقيق أمنيتها بالذهاب إلي إلى القبر، وقالت أختي:

– إليك بعض البراندي يا عمي.

يا للسماوات العلى! ها هي الكارثة قد حلت أخيراً! سوف يجد البراندي خفيفاً ويقرر ذلك فأضيع! ثم تشبثت بساق المائدة تحت الغطاء بكلتا يدي وأنا أترقب مصيري!

مضت عمتي لإحضار الزجاجة الحجرية ثم عادت بها وصبت له شرابه ولم يتناول غيره شيئاً. وإذا بالرجل الشقي يرفع كأسه ويتطلع إليها خلال الضوء ثم أعادها ليطيل في شقائي.. بينما كانت مسز جو وزوجها طوال تلك الأثناء ينظفان المائدة بخفة ونشاط من أجل الحلوى.. ولم أقو على إقصاء عيني عن «العم» وأنا مازلت أتشبث بساق المائدة بيدي وقدمي، فرأيت المخلوق البائس يرفع كأسه ثم يبتسم ويلقي ظهره إلى الخلف ليجرع البراندي! سرعان بعد ذلك ما أستحوذ على الضيوف رعب هائل بسبب وثوبه على قدميه وتلفته عدة مرات في رقصة مخيفة من السعال الديكي، ثم أندفاعه نحو الباب.. ثم ظهر خلال النافذة وهو يسعل بشدة وقد تقلص وجهه تقلصات دميمة وبدا عليه الجنون بوضوح!

تشبثت بشدة بينما جرت إليه مسز جو وزوجها، ولم أكن أعرف كيف فعلت به ذلك، ولكني لم أشك في أنني قتلته بطريقة ما.. وبينما كنت في ذلك الموقف المروع، جاء الخلاص عندما أرجعوه. وإذ تأمل الضيوف

جميعهم في أماكنهم، ورآهم كأنهم غير مرتاحين إليه، غاص في مقعده وهو يشهق: قار...

إذن فقد ملأت الزجاجة من زجاجة القار. وأدركت أن حالته ستسوء في الحال.

وصاحت أختي مشدوهة:

– قار! أوه ماذا جاء بالقار إلى هنا؟

ثم طلب بلهجة آمرة إعداد «جن» بالماء الدافيء.. وكان على أختي التي بدأت تفكر في أنزعاج أن تعمل بهمة على إعداد الجن والماء الدافيء والسمر وقشر الليمون وخلطها معاً، وبذلك أتيحت لي النجاة بعض الوقت..

وقالت أختي موجهة خطابها إلى الضيوف بألطف لهجة:

– يجب أن تذوقوا.. في الخاتمة.. هدية العم اللطيفة اللذيذة.

أينبغي أن يذوقوا! أصرفهم «يار باه» عن أمل تذوقها!

وقالت أختي وهي تنتصب واقفة:

– يجب أن تعلموا... أنها فطيرة. فطيرة لذيذة محشو بلحم الخنزير.

فغمغم الضيوف بثنائهم، وخرجت أختي لتحضر الفطيرة، وسمعت وقع أقدامها تتجه إلى الكيلار. ورأيت مستر بمبلشوك يعدل سكينه فشعرت بأنني لا أقوى على احتمال المزيد، وأنه يجب علي أن أهرب بعيداً فتركت سائق المائدة وعدوت للنجاة بحياتي. ولكني لم أجر إلى أبعد من باب المنزل

لأنني أصطدم رأسي بثلة من الجنود المدججين بالنبادق! وقد رفع أحدهم قيدين حديدين في وجهي قائلاً لرفاقه:

– تفضلوا أشحذوا أبصاركم. تعالوا.

الفصل الرابع

كان وصول الجنود سبباً في أن نهض المدعوون للعشاء عن المائدة في هرج ومرج، وفي أن مسز جو عند عودتها من المطبخ خاوية اليدين..

توقفت فجأة عن السير لتحملق مذهولة ثم تصيح:

– بالله ماذا حدث للفطيرة؟

ولكن الجاويش قال:

– مغفرة يا سيداتي وسادتي؛ فأنا أطارد «مجرمين» بأسم الملك وأريد الحداد...

ثم أوضح كيف أختل أحد القيود الحديدية وأنه يطلب من الحداد أن يفحصها لأنها مطلوبة في مهمة عاجلة. ولما أخبرته مسز جو بأن هذا العمل يستغرق ساعتين، طلب إلى الحداد أن يبدأ على التو في العمل، ثم طلب إلى رجاله أن يمدوا له يد المساعدة!

ونت أعاني ألم الخوف، ولكن عندما بدأت أدرك أن القيود الحديدية ليسب لي وأن وصول الجنود جعل أختي تنسى أمر الفطيرة. أستجمعت شتات نفسي "أي أستعدت هدوئي" ممرة أخرى. وسأل مستر ووبسل الجاويش هل هم يطاردون مجرمين محكوماً عليهم بالأشغال الشاقة؟

فأجابه الجاويش:

– نعم. أثنين والمعروف جيداً أنهما مازالا في المستنقعات. ولن يغادراها

قبل أن يرخي الظلام أستاره، هل أحداً منكم هناقد شاهد أحد الرجلين؟

فأجابوا جميعاً– ما عداي– بالنفي وهم واثقون كل الثقة، ولم يفكر أحدهم في سؤالي. ثم خلع جو معطفه وسترته وأرتدى مرولته الجلد ثم مضى إلى المصنع حيث أشغل أحد الجنود النار، وأدار الآخر الكير بينما ألتف الآخرون حول النار المتوهجة الت ما لبثت أن زمجرت.. وعندئذ أخذ جو يطرق ونحن جميعاً تتطلع إليه، وأخيراً.. أتم جو عمله وتوقف الرنين وزئير النار، وبعد أن أرتدى جو معطفه أقترح أن يضي بعضنا مع الجنود ليشاهد نتيجة المطاردة، فأظهر مستر ووبسل أستعداده للذهاب لو رافقه جو. وكانت مسز جو تتحرق لمعرفة كل شيء عن تلك.

ولم ينضم إلينا أحد من أهل القرية لأن الطقس كان بارداً وينذر بالمطر، ولأن الطريق قفر والظلام وافد والناس ينعمون بالنيران الطيبة داخل الدور حيث يقبعون. ثم هطلت الأمطار مجاجلة فوق رؤوسنا عندما عادرنا فناء الكنيسة وأندفعنا نحو المستنقعات فحملني على ظهره وكان الجنود يتجهون صوب الطايبة القديمة ونحن من خلفهم عن كثب، وفجأة توقفنا كلنا لأن أجنحة الرياح والأمطار حملت إلينا صبحة طوييلة. تكررت، وبدا لنا أن صيحتين أو أكثر تدوبان معا! ولما أقتربنا من الصياح، أستطعنا أن نسمع صوتاً واحداً ينادي «قاتل» وصوتاً آخر يهتف، محكوم عليهما بالأشغال.. هاربون من السجن! يا حارس! من هذا الكريق هرب المجرمان ثم بدا كأن الصوتين قد أختنقا في صراع، ليدويا من جديد بعد ذلك، ولما سمع الجنود ذلك جروا في خفة الغزلان، وكذلك فعل جو. وصاح الجاويش وهو يلهث ويناضل في قاع الخندق!

– ها هما الرجلان. أستسلمنا أنتما الأثنين، ولعنة الله عليكما من وحشين.. أنفصلا!!

وكانت الياة تتناثر والأوحال تتطاير والشتائم تتعالى والضربات تتوالى فهبط إلى الخندق بعض جنود آخرين لمساعدة الجاويش، ثم جروا صاحبي المحكوم عليه والرحل الآخر كلا على حدة، ولن كلاهما كان يدمي ويلهث ويسب ويناضل. بيد أنني عرفت كلا الرجلين في الحال، وقال صاحبي وهو يمسح الدم عن وجهه بكميه المهلهلين، وينفض الشعر الممزق عن أصابعه:

– لقد قبضت عليه وهأنذا أسلمه لكم فتذكروا ذلك..!

فقال الجاويش:

– هذا لا يهم كصيراً لأنك أنت نفسك يا صاحبي مجرم آبق.. قيدوه!
وكان المجرم الآخر كثير الرضوض والتمزقات، وكانت أولى كلماته:

لاحظ أيها الحارس أنه حاول قتلي!

فقال صاحبي بأحتقار وإزدراء:

– حاولت قتله؟ هل حاولت ولم أنفذ؟ لقد قبضت عليه وسلمته. هذا ما فعلته. أنا لم أمنعه من مغادرة المستنقعات فحسب، ولكنني جررته إلى هنا. جررته طوال تلك المسافة.. هذا الوغد من فضلكم أحد السادة وها هو السجن قد أستعاد هذ السيد مرة أخرى.ز بفضلي! أقتله؟ أنه ليس أهلا لأن أقتله طالما كان في وسعي أن أفعل به ما هو شر من ذل. وهو أن أجره وأعيده. وكان الرجل الثاني لا يزال يشهق قائلاً:

– لقد حاول. حاول. أن يقتلني. كن. كن شاهداً أيها الحارس! فقال رجلي الجاويش:

– أنظر إلي.. لقد هربت من ثله من الجنود المدججين بالبنادق. فعلت ذلك بأن أندفعت هارباً منها. وكان هذه المستنقعات الباردة كالموت.. تطلع غلى ساقي: لن تجد حولها قيوداً حديدية كثيرة، لولا أنني أكتشفت وجوده هنا، فتساءلت: هل أتركه حراً. هل أدعه ينعم بالوسائل التي أهتديت إليها؟ هل أتركه يسخرني مرة أخرى؟ مرة أخرى؟ كلا. كلا. كلا... ولو أنني مت في ذاك الخندق لظللت أمسك به في قبضتي لتجدوه حتما في قبضتي.

فقال الجاويش:

– كفى مشاحنة. أوقدوا تلك المشاعل.

وتلفت "رجلي" حوله لأول مرة فشاهدني. إذ كنا قد هبطت عن ظهر جو عندما بلغنا ذلك المكان. ولم أبرحه منذ ذلك الوقت، وتطلعت إلى الرجل بأهتمام عندما نظر إلي وحركت يدي قليلاً ثم هززت رأسي، فقد كنت أترقب أن يراني كي أؤكد له براءتي. ورماني بنظرة لم أفهمها، وأنقضى كل ذلك في لحظة عابرة..

ولما أضيئت المشاعل ألقى الجاويش آمره بالمسير.. وبعد ساعة تقريباً وصلنا إلى كوخ خشبي بسيط، ومكان رسو القوارب. وهناك كان أحد الحراس في الكوخ، فقدم تقريراً ثم قيد بعض الملاحظات في دفتره، وما لبث المجرم الذي أسميه المجرم الآخر أن مضى مع حارسه ليسبق إلى السفينة.

وفجأة. ألتفت "رجلي" إلى الجاويش وأدهش الجميع بأن أعترف بأنه سرق من بيت الحداد كسراً من الخبز وفطيرة وبعض البراندي.

وعاد القارب وقد أستعد حارسه فتبعناه إلى المرسي، ثم رأيناه يوضع في القارب الذي كان يجدف فيه بحارة من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من أمثاله. وزمجر واحد في القارب كأنما يخاطب كلاباً: «هيا جدفوا، في الماء. ورأيت على ضوء المشاعل سفينة السجن السوداء. فكان ذلك إيذاناً بأعمال المجاذيف في سفينة السجن، وحدي بلا معاونة، على كثب من أوحال الشاطيء أشبه بسفينه نوح وقد سدت منافذها وأحكم وثافها بسلاسل ضخمة صدئة، وخيل لعيني الصغيرتين، أن تلك السفينة أوثقت بالحديد كما يوثق المساجين.. ثم شاهدنا القارب ينساب جانباً ورأينا "صاحبي" يحمل إلى ذلك الجانب ثم يختفي.

الفصل الخامس

عندما شببت عن الطوق أتخذني جو صبيا له. وإلى ذلك الحين كنت صبياً إضافياً في المصنع. وإلى جانب هذا لو صادف أن أحتاج أحد الجيران غلى صبي زائد لا خافة العصافير أو التقاط الأحجار أو مثل هذا العمل.. كنت أوثر بهذا العمل. وفي تلك الأثناء أنتظت بمدرسة مسائية تديرها عمه والد المستر وويسل. وكان لهذه العمة طريقة خاصة «شاذة» في التعليم، إذ كانت تعمد عادة إلى النوم من الساعة السادسة إلى الساعة السابعة مساء كل يوم تاركة تلاميذها يعملون جهدهم على تحسين مستواهم بتقليدها..

وكانت هذه العمة.. بجانب إدارتها للمعهد العلمي_ تدير في نفس الحجرة «دكاناً صغيراً عاما "أي لمختلف المبيعات" وإن لم تكن لديها أي فكرة عن مقدار تختزنه في حانوتها. أو عن ثمن شيء فيه.. ولكن كان لديها دفتر يعلوه الشحم تحتفظ به في أحد الأدراج وتستعمله قائمة للأسعار.. وبهذه القائمة كانت "بيدي" إحدى قريبات مستر وويسل من بعيد تتولى المعاملات كلها. وكانت يتيمة مثلي كما ربيت مثلي باليد!!

وبمعاونة بيدي أكثر منه بفضل عمة مستر وويسل. جاهدت في تعلم الحروف الأبجدية التي ان كل حرف منها يتبعني تعباً شديداً، ولكنني بدأت– في النهاية– أتحسن طريقي كالأعمى فأقرأ وأكتب وأحسب في أضيق حيز وأصغر مدى..

لم يذهب "جو" إلى مدرسة قط في طفولته فكتبت له في إحدى الأمسيات ونحن جالسان وحدنا بجانب النار حرفاً على لوح أعطيته له. وعلى الرغم من أنه أستطاع أن يقرأ أسمه فحسب، فقد صرح لي بأنني عالم عظيم وأظهر إعجابه بتعليمي ثم أخبرني بطرف من قصة حياته: كان والده يدمن الشراب, وكثيراً ما ضرب جو وأمه اللذين هربا منه عدة مرات واضطرا إلى العمل لكسب قوتها ولكنه كان يعيدهما إليه دائماً. وأضطر جو أن يعمل حداداً في مكان والده الكسول ثم ظل يعول أباه حتى موته وسرعان ما لحقت به أمه.. وبعد ذلك تعرف "جو" بأختي وطلب يدها، وتوسل إليها أن تجيء بي معها قائلاً إن بالمصنع متسعاً لي. وأخيراً قال جو وهو يختم قصته:

– هكذا ترى يا بيب. وها نحن أولاء! والآن يا بيب وأنت تساعدني في تعلمي_ وأؤكد لك مقدماً أنني غبي– يجب أن لا تعرف مسز جو كثيراً مما نعمله، بل يجب أن نعمل ذلك– إذا جاز لي القول– خفية في السر، لأن أختك أعتادت السيطرة ولا تحب أن يكون المنزل علماء، وهي على الأخص لا تحب أن أكون عالماً خشية أن أثور. وكنت أهم بأن أسأله «لماذا» عندما أوقفني قائلا:

أبعد لحظة. أنا أعرف ما تهم بقوله إذا أنك تريد أن تعرف لماذا لم أثر. حسناً. إن أختك لها عقل آمر ناه بينما أنا محروم من ذلك. هذا يا بيب إلى أنني رأيت الكثير في حياة والدتي المسكينة: امراة مستعبدة حطمت قلبها الوفي دون أن تظفر قط بأي راحة في حياتها بحيث أخشى أن أخطيء سواء السبيل إن لم أفعل ما أستصوبته امرأة ولا أحب أن أكون أنا نفسي

سبباً في بعض المتاعب. بودي أن أستطيع أحتمال ذلك كله على عاتقي ولكن هكذا تجري الأمور يا بيب وأرجو أن تتجاوز عن النقائض والمعايب.

وبرغم صغر سني إّ ذاك أعتقد أنني أحسست في تلك الليلة بإعجاب جديد بجو.. وكانت مسز جو تقوم برحلات صغيرة من حين لآخر مع العم بمبلشوك في أيام السوق لتعاونه في شراء ما يحتاج من البضائع المنزلية إلى ذوق نساي.. وكنا في أحد أيام السوق وكانت مسز جو في الخارج... تقوم بأحدى هذه الرحلات ولكنهما ما لبثا أن جاءا وقال مسز جو وهي تخلع ملابسها على عجل وفي هياج وتطوح بقبعتها إلى الخلف فوق كتفيها حيث تربطها بعض الخيوط:

– والآن. إذا لم يعترف هذا الصبي الليلة بالجميل فلن يعترف به قط.

وبدا على أنني أكثر الأولاد أعترافاً بالجميل وأنا الذي كنت أجهل تماماً لماذا يجب أن أكون هكذا!! وعادت أختي تقول:

– فقط أرجو ألا يدلل ولكن تساورني المخاوف.

فأجابها مستر بمبلشوك:

– لا يحتمل أن تدلله.. إنها أعلم بذلك.

– هي؟

تطلعت غلى جو وأنا رسم بشفتي وحاجبي كلمة «هي» وتطلع جو إلي وهو يرسم الكلمة بشفتيه وحاجبيه فصاحت أختي بادية الأنفعال:

– ماذا؟ لماذا تحملق مذهولا؟ هل شبت النيران في المنزل؟

فقال جو في أدب وتلميح:

– إن إنساناً ذكر كلمة «هي» فقالت أختي:

– أظن هي تعني هي اللهم إلا إذ كنت تسمي مس هافيشام «هو» وأشك في أنك تفهم حتى إلى هذا الحد قال جو:

أهي مس هافيشام المقيمة بأعلى المدينة؟

فأجابته أختي:

– وهل هناك مس هافيشام أخرى تقيم في أسفل المدينة؟ إنها تريد أن يذهب هذا الولد ويلعب عندها وسيفعل بالطبع إذ يحسن أن يلعب هناك.

وكانت وهي تتكلم تهز رأسها لي تشجيعاً لي على أن أكون جد خفيف ولعوب ثم أردفت قائلة:

– وإلا فسوف أحمله على الشغل والعمل!!

وكنت قد سمعت بمس هافيشام التي تقيم بأعلى المدينة كما سمع كل من يجدون مياه حولي المدينة أنها سيدة طائلة الثراء فظة تقيم في بيت كبير موحش وتعيش في وحدة. فقال جو مشدوها:

– والواقع أنني أتساءل كيف حدث أن عرفت بيب؟

فصاحت أختي:

– يا لك من أحمق! من قال إنها عرفته؟

فعاد يقول في أدب وتلميح:

– إن "إنساناً" ذكر أنها تريد أن يذهب ويلعب عندها.

– وهلا كان في وسعها أن تسأل العم بمبلشوك عما إذا كان يعرف صبياً يذهب ويلعب عندها؟ وهل لا يمكن أن يكون العلم بمبلشوك أحد مؤجريها وأنه يذهب إليها في بعض الأحيان ليدفع لها الإيجار؟ وهلا كان في وسع العم وهو دائم العطف والتفكير فيما أن يذكر هذا الصبي الذي أستعبدني بمحض أختياري على الدوام؟

فهتف العم بمبلشوك:

– رائع جداً تعبير جميل..! إصابة دقيقة للهدف! رائع في الواقع، إنك الآن قد فهمت الأمر يا جوزيف.

فقالت أختي:

– كلا يا جوزيف فأنت تعرف أن العم بمبلشوك يرى أنه ربما أمكن تهيئة الحظ لهذا الولد بذهابه إلى منزل هافشام فتطوع بأن يمضي به الليلة إلى المدينة في عربته الخاصة وسوف يؤوي الصبي لديه الليلة ثم يأخذه في صبيحة الغد فيسلمه بيديه لمس هافيشام.

وعندئذ أمسكت بي على التو ثم وضعت رأسي تحت "الحنفية" وغسلته بالصابون ثم جففته بشدة مما جعلني في الواقع أكاد أجن تعباً وأعياء. ثم ألبستني ملابس تحتية نظيفة من أخشن الأقمشة ثم أسلمتني إلى مستر بمبلشوك الذي يلقي على مسامعي حديثاً كنت أعرف أنه كان يتلهف على أن يلقنني إياه:

– كن يا فتى دائماً ذلك المعترف بجميل أصدقائه جميعاً وخاصة أولئك الذين ربوك بأيديهم.

قلت أخيراً:

– وداعاً يا جو.

– باركك الله يا بيب.. يا صديقي القديم.

– ولم أكن قد أقترفت عنه من قبل كما أنني لعدة أسباب منها مشاعري ورغاوي الصابون التي في عيني لم أن أتبين نجوم السماء وأنا جالس في العربة ولكنها ما لبثت أن تألقت واحدة تلو الأخرى دون أن تلقي ضوءاً على أسئلتي: لماذا يا ترى أنا ذاهب للعب بمنزل مس هافشام وبماذا يا ترى ينتظر أن ألعب؟

الفصل السادس

تناولت الفطور مع مستر بمبلشوك في الساعة الثامنة بحجرة الجلوس خلف ؟؟؟. وفي الساعة العاشرة مضينا إلى منزل مس هافيشام فبلغناه قبل ربع ساعة. وهو منزل من الطوب القديم.. مظلم ذو قضبان حديدية كثيرة. وقد سدت بعض نوافذه أما بقيتها فكانت تعلوها جميعاً قضبان يكسوها الصدأ وكذلك كان الحال مع الفناء الذي يواجه المنزل ولذا كان علينا أن نتنظر بعد دق الجرس حتى يأتي من يفتح الباب. وفيما كنا ننتظر عند البوابة تلصصت بعيني إلى الداخل فرأيت بجانب المنزل معملا للجعة. وفجأة رفعت رفعت إحدى النوافذ ثم سأل صوت ةاضح النبرات:

– ما أسمك؟

فأجاب مرشدي: –بمبلشوك–

وعاد الصوت يقول: حسناً.

ثم أغلق الباب مرة أخرى.. وقدمت سيدة شابة عبر الفناء وفي يدها مفاتيح فقال لها مستر بمبلشوك:

فأجابته السيدة الحسناء وكانت بادية الغندورة والكبرياء.

– هذا بيب: حقيقة؟ أدخل يا بيب.

وكان مستر بمبلشوك يهم بالدخول كذلك ولكنها أوقفته عند البوابة تسأله:

– هل.. ترغب في مقابلة مس هافيشام؟

فأجابها:

– لو شاءت هي أن تقابلني.

– آه.. ولكنك تعرف أنها لا تشاء ذلك.

قالت ذل بلهجة حازمة قاطعة لم يتسن معها لمستر بمبلشوك أن يعترض ولكنه تأملني بغضب شديد كأنما أسأت إليه ثم مضى وهو يقول:

– ليكن سلوكك يا فني جدير بمن ربوك بأيديهم.

وأغلقت السيدة الشابه البوابة ومضينا غير الفناء المرصوف النظيف وإن كانت الحشائش تتخلل أحجاره. وكانت أبواب معمل الجعة مفتوحة وقد خوى كل المصنع وطال تركه بلا أستعمال.. ولما شاهدتني أتطلع إلى المعمل قالت– في وسعك أن تحتسي بلا ضرر كل الجعة القوية التي تصنع في ذلك المعمل يا فتى.

فقلت بلهجة حيية:

– أظن ذلك في وسعي يا آنسة.

– يحسن ألا تحاول صنع جعة هناك الآن وإلا غدت مرة المذاق يا فتى. ألا تظن ذلك؟

– يبدو هذا يا آنسة.

ليس معنى هذا أن يحاول ذلك أي إنسان فقد أنتهى ذلك العهد

وسيظل هذا المكان خاملا كما هو الآن إلى أن تنهار أحجاره.. أما الجعة القوية فلدينا الآن منها في الأقبية ما يغرق العزبة.

– هل العزبة أسم هذا المنزل يا آنسة؟

– أحد أسمائه يا فتى.

– أذن له أكثر من أسم يا آنسة.

– كان له اسم آخر. كان ساتيس هاوس، وهذا أسم إغريقي أو لا تبني معناه كاف.

قلت:

– منزل كاف!؟ يا له من أسم عجيب يا آنسة!!

– نعم ولكنه يعني أكثر من لفظه، كان يعني – عندما أطلق على المنزل.

– إن كائنا من كان ممن يمتلكون هذا المنزل يجد فيه من "الكفاية" ما يجعله في غير حاجة إلى شيء آخر. والغالب أنهم كانوا يقنعون بسهولة في تلك الأيام على ما أظن. ولكن لا تتراخ في مشيتك يا فتى.

وعلى الرغم من أنها كانت تدعوني «فتى» في أغلب الأحيان وبغير أكتراث إلا أنها كانت في حوالي سني وإن كانت تبدو أكبر مني بالطبع باعتبارها فتاة حسناء واثقة من نفسها وكانت تعاملني باحتقار كما لو كانت ملكة في الحادية والعشرين من عمرها.

ثم دخلنا المنزل من باب جانبي وكان أول ما لحظته أن الممرات كلها

معتمة وأن الآنسة مركت بها شمعة مضيئة فأخذتها ومضت خلال ممرات أخرى ثم صعدت درجاً وما زال الظلام يكتنفنا من كل جانب ولا يضيء لنا غير الشمعة وحدها وأخيراً بلغنا باب حجرة فقالت «أدخل» ثم أنصرفت والشمعة معها.

أحسست بشيء من الضيق وبشيء من الخوف.. ومع ذلك طرقت الباب فطلب إلي من الداخل أن أدخل ولما فعلت وجدت نفسي في حجرة كبيرة جميلة تضيئها الشموع جيداً. ولم يكن يشاهد بها بصيص من ضوء النهار. ثم رأيت منضدة سيدة للزينة. وفي مقعد ذي مسندين جلست ومرفقها يعتمد على المنضدة ورأسها يتكيء على تلك اليد.. كانت أعجب سيدة رأيتها أو يمكن أن أراها في حياتي!!

كانت ترتدي أغلى الملابس. وكلها بيضاء. وكذلك كان لون حذائها كما كان قناعها الطويل المتدلي من شعرها الذي وضعت فيه زهور العرس. وإن كان شعرها قد أبيض وفي عنقها ويدها كانت تأتلق بعض المجوهرات المتلألئة كما كان على المنضدة بعض مجوهرات أخرى. ولم تكن هذه السيدة قد أنتهت تماماً من أرتداء ملابسها لأنها لم تكن ترتدي سوى "فردة" حذاء بينما كانت الأخرى بجانب يدها فوق المنضدة ولأنها لم تكن قد تحلت بساعتها وسلسلتها.

وكان يجب أن يظل كل شء تحت أنظاري أبيض كما كان منذ سنوات عديدة ولكنه ما لبث أن فقد أشراقه وغدا ذابلا أصفر اللون. وكذلك ذبلت العروس كثوب عرسها ولم يبق بها ما يلتمع سوى بريق عينيها

الغائرتين فبدت أشبه بتمثال مخيف أو هيكل عظمي. وتطلعت إلي ولو أستطعت لصرخت إذ ذاك ثم قالت تسألني:

– من هذا؟

– بيت يا سيدتي.

– بيب؟

– فتى مستر بمبلشوك يا سيدتي جئت لألعب.

– أقترب... دعني أنظر إليك. أقترب.

وبينما كنت أقف أمامها متحاشيا عينيها. لحظت تفاصيل ما يحيط بي فرأيت أن ساعتها واقفة عند الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة وأن ساعة الحائط واقفة كذلك عند التاسعة إلا ثلث. وما لبثت مش هافيشام أن خاطبتي قائلة:

– أنظر إلي. أتخشى ارأة لم تر الشس منذ مولدك؟

فأجبتها بالنفي كذبا مني فقالت وهي تضع يديها. الواحدة فوق الأخرى على جنبها الأيسر.

– أتعرف ماذا ألمس هنا؟

– نعم يا سيدتي.

– ماذا ألمس؟ – قلبك.

– الكسير.

وقد نطقت هذه الكلمة بحرارة وتأكيد قوي وبأبتسامة عجيبة يشوبها نوع من الزهو ثم قالت:

– أنا متعبة، وأريد شئياً يسليني فقد سئمت الرجال والنساء.. أما اللعب. فإن بي رغبة عجيبة في أن أرى من يلعبون.

ثم أردفت بحركة من أصابعها تدل على نفاذ الصبر:

– هيا.. ألعب.. ألعب.ش

فوقفت أتطلع غليها بما أحسبها فهمته مظهراً ن مظاهر العناد إذ قالت:

– مشاكس عنيد!

– كلا يا سيدتي.. أنا آسف من أجلك وأكثر أسفاً لأنني لا أستطيع أن ألعب على التو.. وإذا شكوت مني فسوف ألقي العناء على أختي. ولذلك فإنني أتمنى أن أفعل لو أستطعت ولكن كل ما هنا جديد جداً علي.. غريب جداً. جميل جداً ومحزن.. فغمغمت قائلة:

– جديد جداً عليه، ولكنه قديم جداً بالنسبة لي, غريب جداً عليه ومألوف جداً لدي، ولكنه محزن جداً لكل منا! أدع استيلا، أدع استيلا عند الباب.

فعلت ذلك، ولما قدمت استيلاء أشارت إليها مس هافيشام أن تقترب ثم على شعرها الكستنائي وأخيراً قالت:

– ستصبح ملكاً لك يوماً يا عزيزتي وسوف تحسنين أستعمالها، والآن دعيني أراك تلعبين الوق مع هذا الفتى.

– مع هذا الفتي! لماذا؟ إنه صبي من عامة الصناع!

وأظنني ترامى إلى أذني جواب مس هافيشام، وإن خيل لي فقط أنه غير محتمل.

– ماذا؟ إنك تستطيعين تحطيم قلبه؟

فسألتني استيلال بأقصى أحتقار وإزدراء:

– ماذا تلعب يا فتى؟

– لا شيء سوى لعبة الشايب.

فقالت مس هافيشا:

– ألعبها معه يا استيلا،

وهكذا جلسنا إلى الورق، وفيما كانت استيلا تقسم الورق تطلعت مرة أخرى إلى منضدة الزينة فرأيت الحذاء عليها، كان أبيض ثم أصفر دون أن يلبس قط.

ثم تطلعت إلى القدم وقد خلت من الحذاء فرأيت أن الجوارب الحريري الذي كان عليها أبيض ذات يوم ثم حال لونه الآن، وأنه أستعمل في المشي حتى تهلهل. وقالت استيلاء بإزدراء قبل أن ينتهي اللعب:

– إنه يسمى الأولاد صبيان! ثم أي يدين خشنتين له، وأي حذاء غليظة!!

ولم أشتشعر الخجل قبل ذلك من يدي، ولكني بدأت أعتبرهما "زوجاً

رديئاً" بل وبلغ من قوة أحتقارها أن أصبح معديا، وقد أصابني العدوى "فأحتقرت نفسي" وأخيراً كسبت هي الدور.. ولما قسمت الورق أخطأت وكان خطىء أمراً طبيعياً لأنني كنت أدرك أنها كانت تترقب أن تقع مني هفوة فسمتني غبياً وأخرق وعاملاً "صنايعي" ولما تطلعت إلينا مس هافيشام قالت لي:

– إنك لا تقول لها شيئاً.. إنها توجه إليك عبارات عديدة قاسية، ولكنك لا تقول لها شيئاً! ما رأيك فيها؟

فقلب متعلثما:

– لا أحب أن أقول رأيي فيها.

فأنحنت مس هافيشام لتقول:

– قل لي في أذني.

فأجبت هامساً:

– أظنها غاية في الكبرياء.

– هل من شيء آخر؟

– أظنها سبابة جداً..

– هل من شيء آخر؟

– أظن يجب أن أذهب إلى منزلي.

– وأنلا تراها مرة أخرى رغم أنها آية في الجمال؟

– لست وثقا من أنني لا أحب أن اراها مرة أخرى. ولكني أحب أن أذهب لمنزلي الآن.

فقالت بصوت عال:

– ستذهب حالاً.. أنجز اللعب.

فلعبت مع استيلا إلى النهاية.. وغلبتني ثم ألقت الأوراق على المنضدة بعد أن غلبت في كل مرة كأنما أحتقرت الأوراق لمجرد أنها كسبتها مني أنا! وعادت مس هافيشام تقول:

– متى أراك مرة أخرى؟ دعني أفكر.. تعال مرة ثانية بعد ستة أيام، رافقيه إلى تحت يا استيلا، ودعيه يأكل شيئاً. أذهب يا بيب!

فأرتني استيلا الطريق بشمعتها ولما فتحت المدخل الجانبي أربكني أندفاع ضوء النهار فقالت استيلا:

– أنتظر هنا يا فتى..

ثم أختفت وأغلقت الباب. ولما وجدتني وحيداً في الفناء تطلعت إلى يدي الخشنتين وإلى حذائي الفظ! ولم تكن هذه قد سبب لي متاعب من قبل، ولكنها ضايقتني الآن، ووددت لو أن جو نشأ نشأة أكثر رقة لأكون بدوري أيضاً قد نشأتها.

وعادت ببعض الخبز واللحم وكوب صغير من الجعة وضعته على الأرض وناولتني الخبز واللحم دون أن تتطلع إلي، في وقاحة كأنني كلب شائن.. وبلغ من إذلالي أن أنبثقت الدموع في عيني فتطلعت إلي بسرور

عاجل، بأن جعلتني أنتحب ثم غادرتني، ولما ذهبت تلفت حولي باحثاً عن مكان أخفى فيه وجهي ثم أنزويت خلف أحدى البوابات في مصنع الجعة، وأطلقت العنان لعبراتي وأخيراً. مسحت وجهي بكمي ثم خرجت من خلف البوابة، وكان الخبز واللحم لذيذين والجعة مدفئة، وسرعان ما أقتربت الفتاة بالمفاتيح لتخرجني ثم فتحت البوابة ووقفت خلفها.. ولما خرجت دون أن أتطلع إليها لمستني وسألت:

– لماذا تبكي؟

فقلت: لأنني لا أريد..

فقالت:

– إنك تريد فقد بكيت حتى كدت تعمى وأنت توشك أن تبكي الآن مرة أخرى ثم ضحكت بأحتقار ودفعتني إلى الخارج ثم أغلقت البوابة خلفي.. وسرت إلى منزلي غاية في التعس والشقاء. وأنا أفكر في كل ما رأيته شاعراً تمام الشعور بأنني صبي من عامة الصناع..

الفصل السابع

عندما عدت إلى المنزل كانت أختي شديدة اللهفة على معفرة كل شيء عن مس هافيشام، فألقت علي وابلاً من الأسئلة وسرعان ما وجدتني أضرب على ظهري ضرباً مبرحاً ويدفع وجهي إلى حائط المطبخ لأنني لم اجيب عن تلك الأسئلة بالتفاصيل الكافية، وأسوأ من ذلك أن الكهل بمبلشوك لمناكف الصخاب جاء في عربته وقت تناول الشاي ليطلب تفاصيل "تلك المقابلة" فسألني:

– ما شكل مش هافيشام؟

قلت له: غاية في الطول والسمرة.

فسألته أختي: أهي كذلك؟

ولما أغمض أحدى عينيه موافقا أستنتجت على الفور أنه لم يرمش هافيشام قط لأنها لم تكن على شيء من هذا القبيل.. ثم عاد ليسألني:

– ماذا كانت تعمل عندما ذهبت إليها اليوم؟

فأجبته:

– كانت جالسة في عربة من المخمل الأسود.

فحملق كل من مستر بمبلشوك، وأختي في الآخر ثم ردد كلاهما قولي.

– عربة من المخمل الأسود!!

قلت:

نعم وقد قدمت لها مس استيلا كعكا ونبيذاً من نافذة العربة على صحن من الذهب.. فسألني مستر بمبلشوك:

– أكان هناك أحد آخر!

قلت: أربعة كلاب.

– كبيرة أم صغيرة!

– ضخمة وقد تشاحنت من أجل "كستليته عجالي" شرائح من لحم العجل فعاد كل من من مستر بمبلشوك ومسز جو يحملق في دهش بالغ ثم سألتني أختي:

يا لله! اين كانت هذه العربة؟

– في غرفة مس هافيشام.

ولما عاد للحملقة أردفت قائلاً:

– ولكن لم يكن بالعربة جياد.

فسألني بمبلشوك:

– بم لعبت يا فتى؟

لعبنا بالأعلام.. فقد كانت استيلا تلوح براية زرقاء وأنا بأخرى حمراء بينما كانت مس هافيشام تلوح بعلم تناثرت عليه نجوم ذهبية صغيرة. وبع ذلك أخذنا جميعاً نلوح بسيوفنا هاتفين مغتبطين.

– سيوف!؟ من أين جئتم بها؟

من صوان رأيت فيه غدارات ومربي وحيات ولم يكن ثمة ضوء للنهار ولكنها كانت مضاءة كلها بالشموع.

ومرة أخرى تبادلا الحملقة ثم الأنهماك في مناقشة هذه العجائب التي أفلتتني وشغلهما ذلك الموضوع إلى أن عاد جو من عمله ليتناول فنجاناً من الشاي فقصت عليه أختي ما أدعيته من أعمال. وإذ رأيت جو يفتح عينيه الزرقاوين ويديرهما في دهش حائراً، أسفت لكل الأكاذيب الي رويتها.. ولما أنطلق مستر بمبلشوك في عربته تسللت إلى مصنع الحداد وقلت لجو:

– أتذكر ما قلته عن مس هافيشام!

فقال: أتذكر.. أنا أصدقك.. هذا رائع!

– بل هذا مروع يا جو.. لأنه أكاذيب.. كله أكاذيب..

ثم أخبرته بشعوري بالتعس البالغ، وكيف عجزت عن الإفصاح عن دخيلتي إلي وبمبلشوك، وبأن سيدة شابة جميلة كانت بمنزل مس هافيشام. وأنها كانت متعجرفة إلى حد رهيب وكيف قالت إنني من العامة مما أضطررت معه إلى أختلاق الأكاذيب. وبعد أن تروى جو قليلاً قال:

– ثمة شيء واحد مؤكد وهو أن الأكاذيب أكاذيب فلا تتمادى في روايتها يا بيب.. أما إنك من العامة فليس في وسعك أن تتحرر من هذه التسمية بالإنحراف والإلتواء.

ولما صعدت إلى مخدعي الصغير ورقدت على فراشي فكرت في ذلك كما فكرت في كف تعتبر استيلا ومس هافيشام رجلا مثل جو حداداً ما أغلظ حذاءه وأخشن يديه!

الفصل الثامن

عدت في الموعد المحدد إلى منزل مس هافيشام وما أن طرقت الباب حتى جاءت استيلا وقادتني إلى الممر المظلم حيث توجد شمعتها فأخذتها ثم قال:

ستأتي اليوم من هذا الطريق.

ثم أخذتني إلى جزء آخر من المنزل.. وبينما كنا في ذلك الممشى المظلم توقفت استيلا فجأة ثم أستدارت لتقول ووجهها يلاصق وجهي. ماذا!

فأجبت وأنا أكاد أحتضنها وأمنه نفسي. ماذا يا آنسة:

ووقفت تتأملني وبالطبع ووقفت أتأملها وأخيراً سألتني:- هل أنا جميلة!

نعم أظنك آية في الجمال.

- هل أنا سبابة شتامة؟

- لست بذلك القدر الذي كنت عليه آخر مرة.

- لست بذلك القدر؟

- كلا.

وكانت عيناها قد أومضتا بالغضب وهي تلقي السؤال الأخير فلما أجبت عنه صفعتني لي وجهي بكل قوتها ثم قالت:

– والآن أيها الوحش الصغير الفظ ما رأيك في؟

– لن أخبرك.

– لأنك ستخبرني به عندما نصعد.. أليس كذلك؟

– كلا ليس كذلك.

– لماذا لا تعود للبكاء أيها البائس الشقي الصغير؟

وكان قولي أكذوبة لأنني كنت في دخيلي أبكي إذ ذاك بسببها كما أعلم الألم الذي تكلفينه فيما بعد ثم صعدنا الدرج بعد هذا.. إلى حجرة مس هافيشام ثم غادرتني استيلا واقفاً يقرب الباب فبقيت واقفاً هناك حتى ألقت مس هافيشام نظرها على منضدة الزينة ثم قالت دون أن تفاجأ أو تندهش:

– كذا! لقد أنصرمت الأيام.. أليس كذلك؟

– نعم يا سيدتي فاليوم...

فقالت بحركة نافذة الصبر من أصابعها: كفى كفى كفى! لا أريد أن أعلم!! هل مستعد أنت للعب.. وأضطررت إلى الرد ببعض الأرتباك.

– لا أظنني مستعداً يا سيدتي.

فسألتني بنظرة فاحصة. – ألا تريد لعب الورق مرة أخرى!

نعم يا سيدتي ففي وسعي أن أعمل غير ذلك لو طلب إلي.

فقالت فارغة الصبر: إن هذا المنزل يجعلك هرماً جاداً وبما أنك عازف

عن اللعب فهل بك رغبة في العمل؟

قلت لها أن بي رغبة تامة.

فقالت: أذهب إذن إلى تلك الغرفة المقابلة وأنتظرني حتى آتي.

ففعلت ذلك ووجدت أن ضوء النهار– من تلك الغرفة كذلك– قد أغلق دونه تماماً وأن الشموع كانت وحدها تمدها بضوء خافت، وكان كل شيء في الحجرة يكسوه الغبار. ومتهالك: كان بها مائدة طويلة يعلوها غطاء من القماش. وساعات أوقفت كلها.. ورأيت في منتصف المائدة ما يشبه كومة من نسيج تجري إليه وتخرج منه العناكب، وسمعت كذلك جرذانا تجلجل خلف الألواح الخشبية، بينما الخنافس تتحسس طرقها حول الموقد. وفيما كنت أراب هذه المخلوقات الزاحفة من بعيد وضعت مس هافيشام يدها على كتفي بينما كانت تتكيء بيدها الأخرى على عصا في طريقها إلى المائدة.

– هذه المائدة سأوضع عليها عندما أموت وسوف يأتون بي إلى هنا للتفرج علي. ثم أشارت إلى أنسجة العناكب وقالت: وماذا ترى في هذه؟

– ليس في وسعي أن أخمن يا سيدتي.

– هذه كعكة كبيرة.. كعكة العرس.. كعكتي.

ثم تلفتت إلى جميع أنحاء الغرفة وأستطردت قائلة وهي تعتمد على تفي:

– عال.. تعال.. تعال! سيرني! سيرني!

فأستنتجت من ذلك أن عملي الكلف إياه أن أسير مس هافيشام في أنحاء الحجرة فبدأت في الحال وأتكأت هي على كتفي ثم أبتعدنا سريعاً بخطى واسعة.. وبعد قليل قالت: أدع استيلا.

فخرجت إلى البسطة ودعوت استيلا التي قدمت بصحبة أربعة من أقارب مش هافيشام إلا بعدين: صلاص سيدات وسيد. حاول مل منهم أن يبز الآخرين في إظهار أدبه نحو مس هافيشام وفي إعلان حبه وقلقه من أجلها.. ولكنهم لم يخدعوا مس هافيشام التي كانت تعرف أن كل عبارات المحبة التي يظهرونها كانت زائفة وأنهم إنما جاءوا من أجل تقودها التي يطمعون في أن يرثوها بعد موتها.. فقابلت ذلك بالسخرية من جشعهم وأنهالت عليهم بالشتائم التي لم يجرءوا على الأستياء منها صراحة وعلانية.. كان كل ذلك يجري وهي لا تتوقف لحظة واحدة عن خطوها الواسع في أرجاء الغرفة.. وبعد ذلك أمرتهم أن ينصرفوا. وفيما كانت استيلا بعيداً تضيء لهم الطريق إلى النزول قالت لي مس هافيشام: هذا عيد ميلادي يا بيب ولا أسمح لهؤلاء الذين كانوا هنا على التو أو لإنسان آخر أن يتحدث عن هذا العيد. إنهم يأتون إلى هنا في مثل هذا اليوم ولكنهم لا يجرأون على التحدث عنه.

وفجأة.. عادت استيلا فأمرتنا مس هافيشام أن نلعب الورق ولذلك عدنا إلى حجرتنا ولعبنا كما فعلنا من قبل بينما كانت مس هافيشام تراقبنا طوال الوقت وتجه أنتباهي إلى جمال استيلا وتزيد أنتباهي إليه بتجربة مجوهراتها على صدر استيلا وشعرها. وبعد أن لعبنا ست مرات حددت له موعد عودتي ثم روفقت إلى الفناء لأطعم كالمرة السابقة أشبه بكلب..

وهناك أيضاً تركت أيضاً مرة أخرى لأتجول كما يريدون لي. وصادف أن تطلعت إلى إحدى النوافذ لأجدني أتبادل النظرات مشدوها مع سيد شاب ممتقع الوجه أحمر الجفون خفيف الشعر. وسرعان ما أختفى ثم عاد للظهور بجانبي وقال لي: هالو أيها الشاب. فقلت: هالو.

فسألني: من أدخلك!

– مس استيلا.

– ومن أذن لك في التجوال؟

– مس استيلا.

فقال الرجل الشاحب الوجه: تعال نتقاتل.

وماذا كان في وسعي غير أن أتبعه؟ وكانت لهجته حازمة كما بلغ من دهشتي أن تبعته إلى حيث قادني كأني وقعت تحت سحر ما.. ثم قال:

– ومع ذلك قف لحظة إذ يجب أن أوضح لك سبباً للنزال.. ها هو ذا! وبأنفعال شديد صفق فجأة بيديه ثم طوح بإحدى ساقيه عالية خلفه وشد شعره ثم طأطأ رأسه ونطح بطني! فضربته وكان يهم بأن يستأنف الضرب ولكنه أخذ يتراقص إلى الخلف والأمام ثم قال: تعال إلى الأرض.

وعندئذ تبعته إلى نهاية الحديقة حيث خلع– لأسترتة وصديريه فحسب.

– وإنما قمصه كذلك؟ وعلى الرغم من أنه لم يكن يبدو في غاية الصحة فإنني أرتعبت تماماً لاستعداداته المخيفة. ولذلك دهشت عندما

سقطت علي ظهره بمجرد أن ضربته ثم أستلقي يتطلع إلي وهو دامي الأنف ولكنه سرعان مت زثب على قدميه ليمسح وجهه بأسفنجة ويبدأ القتال من جديد.. وكانت دهشتي الكبرى الثانية التي رأيتها في حياتي عندما رأيته مستلقيا على ظهره مرة أخرى وهو يرنو إلي بعين أسود ما حولها! وخيل إلي أنه شجاع وبريء مما جعلني أشعر بأغتباط هزيل لأنتصاري عليه رغم أنني لم أكن أنوي مقاتلته فلبست وقلت له:

- أأستطيع معاونتك؟ - فقال: كلا. أشكرك.

قلت: طاب مساؤك. فقال: وطاب مساؤك.

وعندما عدت إلى الفناء وجدت استيلا تنتظرني بالمفاتيح وقد تألق وجهها بأشراقة حمراء كأنما حدث ما سرها ثم قالت لي: تعال هنا في وسعك أن تقبلني إذا أحببت... فقبلت وجنتها وبادلتني القبلة، ولكنني شعرت بأن القبلة إنما منحت إلي فتى فظ من العامة كما يمنح قطعة من النقود لا تساوي شيئاً.

الفصل التاسع

بدا خاطري يتبلبل كثيراً بشأن السيد الشاب الشاحب الوجه. وكلما فكرت في ذلك القتال وتذكرت ذلك السيد الممتقع الوجه، وقد أستلقى على ظهره، بدت لي ضرورة عمل أي شيء.. وظللت عدة أيام لا أبتعد عن المنزل وأنا أتطلع إلى باب المطبخ في حذر بالغ قبل أن أمضي إلى قضاء أي مهمة خشية أن يكون شرطي في البحث عني.. حتى إذا أزف يوم عودتي إلى مسرح أعمال العنف بلغت مخاوفي الذروة. ولكن كان لزاماً علي أن أذهب إلى منزل مس هافيشام ومع ذلك لم يذكر شيء عن قتالنا ولم يشاأثر لذلك السيد الشاب الممتقع الأسارير.

وقد شاهدت بخارج حجرة مس هافيشام مقعداً يسير على عجلات.. وفي نفس اليوم أنتظمت بصمة وتيرة في مهمة دفع مس هافيشام في العربة هذه "كلما تعبت من السير ويدها على كتفي" فكنت أدور بها حجرتها وعلى بسطة الدرج وحول الأخرى.

ولما أعتاد كل منا على الآخر، أخذت مس هافيشام تطيل الحديث معي وتسألني عما تعلمته وما أنويه في مستقبلي فأخبرتها بأنني سأعود إلى عملي صبياً لدي «جو» وأنني لم أزد شيئاً على معلوماتي وأنني في حاجة إلى معرفة كل شيء.. بأمل أن تقدم لي بعض المعاونة في النهاية.. ولكنها لم تفعل فلا هي أعطتني نقوداً أو أي شيء عدا عشائي اليومي.

وكانت استيلا على الدوام قريبة منا كما كانت تدخلني وتخرجني

بأستمرار ولكنها لم تسمح لي بأن أقبلها مرة أخرى.. وكانت في بعض الأحيان تتسامح معي في برود وفتور... وأحياناً تألفني جداً.. وأحياناً أخرى تنهي إلي بحماسة مبلغ كراهتها لي.. وكثيراً ما كانت مس هافيشام تسألني هامسة عندما نخلو معاً.

فإذا رددت بالإيجاب بدا عليها اغتباطها "الشره" بذلك الرد!! وفي بعض الأحيان عندما كنت أحار فيما أقوله أو أفعله وكلما تعددت أحوال استيلا وتعارضت كانت مس هافيشام تعانقها في وجد وتغمغم في أذنها.

– حطمي قلوبهم يا فخاري.. يا أملي! حطمي قلوبهم ولا تأخذك رحمة!! وفي نفس الوقت. كانت الاجتماعات تتوالى في مطبخ المنزل بين أختي وذلك الجحش_ بمبلشلوك– فكان ذلك الشقي يجرؤ "بأن يشد ياقتي" عادة فيجذبني من مقعدي حيث أكون في هدوء بأحد الأركان ثم يضعني أمام النار كأنما يهم بطبخي وينشأ يقول:

– والآن يا سيدتي ها هو ذا هذا الصبي! ها هو هذا الصبي الذي نشأته بعدك، أرفه رأسك يا فتى وأعترف إلى الأبد بجميل من فعلوا لك ذلك.

وبعد ذلك كان هو وأختي يدخلان في تخمينات لا معنى لها عند مس هافيشام وما ينتظر أن تفعله بي ولأجلي حتى أحس بحاجتي إلى الأنفجار في البكاء وبأن أهجم على بمبلشوك وأكيل له اللكمات المتوالية، أما جو فلم يكن يشترك في تلك المناقشات وإن أدركت أختي أنه لم يكن يويد أنتزاعي من مصنع الحدادة مما كان يجعلها تغضب منه ومني.

وظللنا على تلك الحال زمناً طويلاً إلى أن جاء يوم حدثتني مس

هافيشام قائلة:

– إنك تزداد طولا يا بيب.

ولم تزد على ذلك في تلك المرة ولكنها في المرة الأخرى حين ذهبت لمقابلتها قالت: قل مرة ثانية ما اسم حدادك ذاك؟

– جو جار جرى يا سيدتي.

– أهو المعلم الذي كنت ستعمل صبيا لديه؟

– نعم يا مس هافيشام.

– يحسن أن يتم ذلك في الحال.. أيرضى أن يأتي معك وأن يحضر الأوراق اللازمة.

– إذن دعه يأت حالاً وتعالى معه.

وفي اليوم التالي نفسه أرتدى جو ملابس الأحد ليرافقني إلى منزل مس هافيشام وأعلنت أختي عزمها على أن تمضي معنا إلى المدينة، ثم نتركها بمنزل العم بمبلشوك إلى أن ندعوها بعد أن نكون قد أتممنا مهمتنا لدى السيدتين الجميلتين.

فأغلق مصنع الحدادة في ذل اليوم وسرنا إلى المدينة ثم ذهبت أنا وجو من فورنا إلى منزل هافيشام حيث فتحت لنا استيلا البوابة.. وما إن ظهرت لنا حتى خلع "جو" قبعته ووقف يمسكها بيديه. ولما أخبرتنا بأن لكلينا حق الدخول أمسكت بذراع جو وقدته إلى حضرة مس هافيشام التي كانت تجلس إلى منضدة الزينة وسرعان ما تلفتث إلينا ثم قالت لجو:

– أوه.. أأنت زوج أخت هذا الفتى؟ وهل ربيته لتتخذه صبياً لك يا مستر جارجري؟

وأصر «جو» خلال تلك المقابلة على أن يوجه حديثه إلي بدلاً من مس هافيشام:

قال:

– أنت تعلم يا بيب أنني وأنت صديقان على الدوام وأننا نتطلع إلى أن تساعدني في مصنعي.. ولكن إذا كان لديك أعتراضات على هذا العمل فأرجوك أن تذكرها لأصغي إليها.

فقالت مس هافيشام:

– هل أعترض الفتى من قبل؟ أيحب هذه المهنة؟

ولكن جو أجاب:

– أنت تعلم يا بيب أن هذا على الدوام أكبر ما يتمناه قلبي.

وعبثاً حاولت أن أجعله يدرك ضرورة مخاطبة مس هافيشام. فكلما غمزت له بوجهي أو أشرت إليه بذلك زاد إصراراً على توجيه حديثه إلي، ظناً منه أنه ليس من الأدب أن يتجه إليها الحديث!

وعادت مس هافيششام تسأله: – هل جئت بالأوراق معك؟

فقال كأنما الأمر غير معقول:

– أنت تعلم بيب أنك رأيتني وأنا أضع الأوراق في قبعتي ولذلك وجب

أن تعرف أنها هنا... ثم أخرجها من قبعته ولذلك وجب أن تعرف أنها هنا... ثم أخرجها من قبعته وأعطاها.. لا لمس فيشام... وإنما لي أنا!! وأخشى أن يكون الوجل قد ساورني من هذا الطيب العزيز عندما رأيت استيلا واقفة خلف مقعد مس هافيشام وقد ضحكت عيناها في خبث!، ولما أخذت منه الأوراق أعطيتها لمس هافيشام التي قرأتها ثم قالت له:

– أكنت تتوقع مصروفات نظير تعليم الفني مهنتك؟

ولما وجدته لا يحير جوابا بالمرة قلت له:– لماذا لا تجيب يا جو؟

فقال: – إنني أعني بذلك يا بيب أن السؤال في غير حاجة إلى جواب بيني وبينك فأنت تعل جيد أن الرد عليه كلمة «لا».

فرفعت مس هافيشام كيساً صغيراً كان فوق المنضدة التي بجانبها ثم قالت له:

– لقد أكتسب بيب بعض النقود وها هي ذي. إن بهذا الكيس خمسة وعشرين جنيها أعطها لمعلمك يا بيب.

وكمن سلبت لبه الدهشة لقوام المرأة وحجرتها العجيبين لم يشأ «جو» حتى في هذه اللحظة أن يتحدث لسواي فقال:

– هذا عطف منك يا بيب القاه بكل ترحيب رغم أنني لم ألتمسه.

وقالت مس هافيشام.– وداعاً يا بيب.. أوصليهما إلى الخارج يا ستيلا فسألت.

– هل سأعود مرة أخرى يا مس هافيشام؟

– كلا فإن جار جري سيدك الآن.. أسمع يا جرجري.. كلمة واحدة! وهكذا دعته للعودة عندما خرجت من الحجة وسمعتها تقول له:

– لقد كان الولد فتى طيباً هنا.. وتلك مكافأته.. وبالطبع كرجل أمين لن تتوقع مزيداً على ذلك.

ولا أستطيع الجزم بالطريقة التي خرج بها "جو" من الغرفة ولكني أعرف أنه عندما خرج تقدم بخطى ثابتة فأرتقى الدرج بدل أن يهبط إلى أن لحقت به وأمسكته وبعد قليل كنا خارج البوابة التي أغلقت خلفنا ثم ذهبت استيلا.

وعندما عدنا إلى العم بمبلشوك صاحت أختي: والآن ماذا أعطيت الفتى فطلب جو إلييها وإلى بمبلشوك أن يخمنا فأعتبرا عشرين جنيهاً مكافأة سخية ولكن جو قال مغتبطاً وهو يسلم الكيس لأختي: أنها خمسة وعشرون جنيهاً.

فصاح بمبلشوك وهو يصافحها: أنها خمسة وعشرون جنيهاً يا سيدتي وهو مبلغ لا يفوق ما تستحقين وأرجو لك التمتع بهذه النقود.

ثم جرني من ذراعي وقال:

– وهكذا ترى يا جوزيف وزوجتك أنني أحد من يمضون قدماً فيما بدأوه. إن هذا الفتى يجب حالاً أن يرخص له رسمياً بأن يكون صبياً عاملاً.. هذه طريقتي تحتم أن يعين رسمياً في الحال.

فذهبنا من فورنا إلى دار الحكومة حيث عنيت "صبيا" لجو أمام المأمور،

ولما أمضيت أوراقي أصبحت معيناً، وعندما عدنا إلى منزل بمبلشوك بلغ من أغتباط أختي بالخمسة والعشرين جنيهاً أن أصرت على أن نتناول العشاء في مطعم "الخنزير الأزرق" كما دعت آل هبل ومسترووبسل.

وقضيت يوماً كئيباً لأنهم لم يشاءوا أن يدعوني أذهب لأنام بل كانوا كلما رأوني أستغرق في النوم عمدوا إلى إيقاظي وطلبوا إلى أن «أفرفش» وأخيراً.. عدنا إلى المنزل فلما أويت إلى مخدعي كنت بائساً حقاً قوي الإيمان بأنني لن أحب مهنة جو.. تلك المهنة التي أحببتها ذات مرة.. مرة غير الآن.

ولقد أكتأبت وأغتممت تماماً في اليوم الأول لعملي صبياً ولكن يسرني أن أعرف أنني لم أوجه كلمة واحدة إلى جو بهذا الشأن.. بل لعل ذلك هو الشيء الوحيد الذي يسرني أن أعرفه عن نفسي بذلك الصدد.

من يدري ماذا كنت أريد! وأنى لي أن أقول وأنا لم أعرف ذلك قط؟ كل ما كنت أخشاه ساعة نحس أرفع فيها عيني وأنا في أقذر وأحط حال فأرى استيلا تتطلع إلى الداخل من إحدى نوافذ المصنع. ولقد راودني الخوف من إن تعثر على عاجلاً أو آجلاً وأنا مسود الوجه واليدين.. قائم على عمل أخشن ما لدي من مهام فتنظر إلي وتحتقر شأني.

الفصل العاشر

كان جو يستخدم بالأجر الأسبوعي صانعاً يدعى أوليك. وهو رجل عريض المنكبين مرتجف الأطراف أسمر الوجه مرفور القوة.. ولم يكن ليميل إلى فلما أصبحت صبي جو قل حبه لي ظناً منه أنني سوف أحل محله! ولا غبت في زيارة مس هافيشام واستيلا طلبت إلى جو أن يمنحني نصف عطلة. وعندما ذكرته بذلك في المصنع قال أورليك: والآن يا معلم! أنك بكل تأكيدلن تؤثر واحداً منا على الآخر، فإذا كان الشاب بيب سحيظى منك بعطلة نصف يوم فيجب أن تفعل مثل ذلك مع الكهل أوراليك– إذ كان يطلق على نفسه: الكهل أورليك.

فسأله جو: ما عساك تعمل بنصف عطلة لو أنك منحتها؟

– ماذا أعمل؟ وماذا يعمل هو؟ سأعمل ما سيعمله!

– أنا عن جو فهو سيذهب إلى المدينة!

فأجاب الرجل محتداً:

– وأما عن الكهل أورليك فهو سيذهب إلى المدينة.. في وسع أثنين أن يذهبا إلى المدينة!

– لا تثر.

فزمجر أورليك: سوف أثور عندما أحب.. والآن يا معلم لتعلم أن لا محاباة في هذه الدكان ولتكن رجلا.

فقال جو: حسناً.. بما أنك تقوم بعملك كأغلب الرجال فليمنح الجميع عطلة نصف يوم.

وكانت أختي تقف في الفناء مخلدة إلى الصمت على مسمع منا فأطلت في الحال من إحدى النوافذ وقالت لجو: إن كان مثلك أيها الأحمق يمنح عطلات للكسالى هكذا، فأقسم أنك رجل غني يضيع الأجور هباء بتلك الطريقة.. بودي لو كنت السيد هنا.

فأجابها أورليك محتدا: أنك تتمنين لو أصبحت سيدة كل إنسان.

فصاح به جو: دعها وشأنها.. وكانت أختي تستشيط غضباً فصرخت تقول:

– ماذا تقول؟ وماذا يقوله ذلك الرجل أورليك يا بيب؟ بماذا شتمني وزوجي واقف بجانبه؟ أوه! أوه! أي أسم أطلقه على أمام الرجل الوضيع الذي أقسم أن يدافع عني؟ أدركوني.. أوه!

وفي ثورة ملتاثة.. أندفعت نحو الباب الذي كان لحسن الحظ مغلقاً. وماذا الآن في وسع المنكود جو سوى أن ينهض للعامل عنده ويسأله عما عناه بالتدخل بينه وبين زوجته مسز جو ثم بعد ذلك عما إذا كانت لديه الرجولة الكافية لأن ينازله.. وهكذا تماسك الأثنان عملاقين ولكني في الواقع لم أر في حياتي رجلاً من الجيران يستطيع الوقوف طويلاً أمام جو، ولذلك ما لبث أورليك– أشبه بذلك الشاب الممتقع الوجه– أن تردى في الحال بين تراب الفحم ليقوم متمهلا منه! وبعد ذلك فتح جو الباب وحمل أختي التي كانت قد وقعت مغشاً عليها ثم أدخلها المنزل وأرقدها فيه، وأما أنا

فصعدت لأرتدي ملابسي الخاصة بيوم الأحد. ولما نزلت مرة أخرى وجدت جو وأورليك يتقاسمان قدحاً من الجعة في صفاء ووداد!

وعندما بلغت المدينة لأقوم بزيارتي مررت ببوابة مس هافيشام عدة مرات قبل أن أعتزم دق الجرس. ثم وجدت بداخل المنزل كل شيء على ما كان عليه فيا عدا أن مس فيشام كانت بمفردها فقالت:

– ماذا؟ أرجو أن لا تأمل في شيء لأنك لن تحصل على شيء.

– كلا.. فالحقيقية يا مس افيشام.. قط أردت أن تعلمي أنني قائم على مهنتي، خير قيام. وأنني مدين على الدوام بالشكر.

فقالت وأصابعها العجوز لا تستقر من الأرتجاف.

– كفى! كفى! تعال من حين إلى آخر.. تعال في عيد ميلادك. ثم صرخت فجأة وهي تدير نفسها ومقعدها نحوي:

– آي أنك تبحث عن استيلا.. أليس كذلك؟

والواقع أنني كنت أتلفت حوالي بحثاً عن استيلا فقلت متعلثماً أنني أرجو أن تكون بخير. فقالت مس هافيشام:

– أنها في الخارج.. في مدرسة بعيدة.. بعيدة عن متناول أحد.. وأجمل مما كانت وموضع إعجاب كل من يرونها.. أتشعر بأنك فقدتها؟

حررت ماذا أقول ولكن مس هافيشام كفتني مؤونة العثور على جواب أقصتني بعيداً، فلما أغلقت البوابة خلفي أحسست أكثر من ذي قبل بتبرمي بمنزلي وبمهنتي وبكل شيء.. وكان ذلك كل ما نالني من الذهاب إلى

منزل مس هافيشام. وفي المدينة قابلت مستر مووبسول ثم ذهبت معه لزيارة العم بمبلشوك. وكانت ليلة حالكة الظلام عندما خرجنا لنعود إلى المنزل سيراً على الأقدام.. وعلى كثب من المدينة كنا نمشي وسط ضباب كثيف رطب عندما مررنا برجل بدا عليه أنه كان في أنتظارنا: كان أورليك الذي أخبرنا أن بعض المحكوم عليهم لابد قد هربوا من سجن السفينة لأنه سمع طلقات بنادق متتالية منذ أن أرخى الليل سدوله. وفي طريقنا إلى القرية علمنا في حانة «الثلاثة الملاحين الطروبين» أن منزلنا قد أقتحم في غياب جو وأن واحداً من الناس قد أعتدى عليه وأصيب، فمضينا نجري إلى المنزل بأسرع ما نستطيع لنجد مطبخنا حاشداً بالناس. وهناك كان جراح وجو وجماعة من الناساء وكلهن جاثيات على الأرض وسط المطبخ. ولما أرتددن إلى الخلف عند رؤيتنا شاهدت أختي مغشياً عليها على الأرض بعد أن أذهلتها ضربة أصابت مؤخر رأسها من يد شخص مجهول.

ولم يؤخذ شيء من أي ناحية في المنزل.. ولم يكن ثمة هرج في المطبخ فيما عدا ما فعلته هي نفسها عند ما وقعت وأنبثقت منها الدماء ولكن كان هناك دليل واحد هام في مكان الحادث، فقد ضربت أختي بشيء مثلوم ثقيل على رأسها وعمودها الفقري إذ وجدنا على الأرض بجانبها قيد ساق حديدياً مبروداً لأحد المحكوم عيلهم بالأشغال الشاقة فأيقنت أنع قيد رجلي.. ذلك القيد الذي رأيته وسمعت الرجل يبرده عند المستنقعات ولكن عقلي لم يرض أن يتهمه بأنه الذي أستعمله آخر مرة.. وإنما شككت في أورليك.

وروعني أن أفكر في أنني زودت هذا الرجل بالسلاح وإن صعب على

أن أفكر في غير ذلك مما جعلني أعاني ضيقاً مكبوتاً وأيا أتساءل هل أفضى بسر طفولتي فأقص القصة كلها على جو؟! وأخيراً قررت أن أعترف أعترافاً كاملاً إ رأيت فرصة تساعد على أكتشاف المعتدي.. وظل رجال البوليس يحومون حول المنزل زهاء أسبوع أو أثنين كما قبضوا على عدة أشخاص أبرياء ولكنهم لم يلقوا القبض على المجرم بحال.

وبعد أن أنقضى زمن على ذهابهم.. لازمت أختي فراشها وهي جد مريضة.. زائغة البصر.. وقد أصيب سمعها وذاكرتها بإصابات بالغة وغدا صوتها خافتا غير مسموع. وأخيراً.. عندما شفيت وأمكن معاونتها على هبوط المدرج.. ظلت في حاجة إلى أن أبقى لوحي الأردوازي بجانبها لتملي كتابة ما لا تستطيع إملاءه مشافهة. ورغم ذلك تحسنت حالتها النفسية تحسناً كبيراً وأصبحت صبوراً، وحرنا في العثور على خادمة لائقة تلازمها إلى أن ماتت عمة مسترووبسول وجاءت بيدي لتقيم بيننا. ولقد كانت بركة ونعمة على العائلة وخاصة على جو إذ سرعان ما عنيت بأختي كما لو كات قد درستها منذ الطفولة فأستطاع جو أن ينعم بحياة أهدأ وأن يذهب إلى حانة البحارة المرحين من وقت إلى آخر فأفاد من ذلك التغيير "في بيئته".

الفصل الحادي عشر

شعرت تدريجاً بالتبدل الذي طرأ على "بيدي" فقد تألق شعرها وتنظف كما انت يداها نظيفتين على الدوام. ولم تكن جميلة– بل عادية– ولا يمكن أن تكون مثل استيلا ولكنها كانت لطيفة بادية الصحة هادئة الصباع، أدارت كل شؤون المنزل إدارة رائعة.. وفوق ذلك كانت تتعلم ما أتعلمه ولازمني دائماً ملازمة الظل.

وفي عصر يوم أحد، مضينا معاً في نزهة على الأقدام إلى الستنقعات ولما بلغنا الشاطيء وجلسنا عليه وخرير المياة عند أقدامنا قررت أن الوقت قد حان وأن المكان مناسب لأن أجعل بيدي موضع ثقتي فقلت لها بعد أن أنتزعت منها وعداً بأن تحفظ السر:

– أريد أن أكون سعيداً.

فأجابتني قائلة:

– أوه.. إنني ما كنت أتطلب ذلك لو كنت مثلك! لا أظن ذلك في صالحك.. ألا تعتقد أنك أسعد حالاً بما أنت فيه؟

فصحت بها نافذ الصبر.

– إنني يا بيدي لست سيداً على الإطلاق بحالتي الراهنة فأنني متقزز من مهنتي ولن أنعم بالا، ما لم أحيا حياة تختلف كل الأختلاف عن الحياة التي أحياها الآن.

فهزت بيدي رأسها آسفة وهي تقول:

– هذا ما يرثى له!

ثم أخبرتها بقصة استيلا وكيف أعتبرتني فظاً من الدهماء وكيف كات أجمل من كل من وقعت عليهن العين وكيف أحببتها حباً طاغياً وودت أن أصبح سيداً من أجلها.. فقالت لي بيدي:

– وهل تود أن تصبح سيداً لتغيظها أو لتظفر بها؟ ذلك لأنك لو أردت إغاظتها فخير ما تعمله أن لا تقيم وزناً لكلماتها.. أما إذا كنت ترمي إلى الظفر بها فأنني أراها غير جديرة بأن تسعى للظفر بها.

قلت لها:

– قد يكون هذا هو الحق بعينه ولكن معجب بها أشد الإعجاب.

وكانت بيدي أعقل الفتيات فحاولت أن لا تجادلني طويلاً وإنما ربتت برفق على كتفي مهدئة ثم قالت:

– يسرني أن أحسست بأنني جديرة بثقتك يا بيب.

فصمت وأنا أقف وألف ذراعي حول عنقها ثم أقبلها.. وأخيراً قلت:

– سوف أفضي إليك يا بيدي بكل شيء.

فقالت: إلي أن تصبح سيداً.

ومشينا قليلاً ثم أخذت أتساءل ألست– مع ذلك، في وضعي الطبيعي الصحيح وسط هذه الظروف– أكثر مما كنت وأنا ألعب لعبة

الشائب في ضوء الشمعة بالغرفة التي توقفت ساعاتها وقد أحتقرتني استيلا؟ وسألت نفسي ألا أدرك تماماً أنه لو كانت استيلا بجانبي في تلك اللحظة بدلا من بيدي لجعلتني بائساً؟ وأضطررت إلى الأعتراف بأنني أدرك ذلك على وجه التأكيد فقلت لنفسي:

– ما أغباك يا بيب؟

ثم تحدثنا طويلاً في أثناء سيرنا وبدا كل ما قالته بيدي حقاً.. ولم تكن قط سبابة أو هوائية وما مانت تستشعر الألم إلا من إيلامي وإنما كانت تؤثر أن تجرح صدري فكيف إذن لم أحبها أكثر الأثنتين؟ وإذ كنا في طريقنا نحو المنزل قلت:

بودي يا بيدي لو تستطيعين إصلاح أمري.

فقالت:

– بودي لو أستطيع.

– لو أنني فقط أمكنني حمل نفسي على محبتك! أيسوؤك أن أتحدث بهذه الصراحة إلى صديقة قديمة مثلك؟

أوه يا عزيزت.. كلا على الإطلاق.. دعك مني.

– لو أنني فقط أمكني ذلك لكان هذا في صالحي!

– ولكنك لا تستطيع كما ترى.

وبالقرب من المقابر قابلنا أورلي الذي دمدم قائلاً:

– هالوا إلى أين أنتما الأثنين ذاهبان؟

– إلى أين يمكن أن نذهب.. غير المنزل؟!

– حسناً، إذن سأوصليكما إلى البيت.

كانت بيدي تعارض كثيراً في أن يذهب معنا فقالت لي هامسة:

– لا تدعه يأتي فأنني لا أحبه.

ولما كنت بدوري لا أحبه فقد أتحت لنفسي الحرية في أن أخبره بأننا نشكره ولا نرغب في أن يوصلنا إلى المنزل. وكان أن تلقى هذا الخبر بصيحة ضاحكة ثم أرتد إلى الخلف وإن كان قد مشى خلفنا متراخياً على مبعدة قليلة. وسألت بيدي لماذا لا تحبه فأجابت:

– أوه.. لأنني أخشى أن يكون مغرما بي.

فسألتها غاضباً:

– هل أفضي إليك بحبه مرة؟

فقالت وهي تتطلع إليه من فوق كتفها:

– كلا لم يقل لي ذلك قط ولكنه يحدق في كلما وقعت عيناه علي. والواقع أنني حنقت لجرأة أورليك على الإعجاب بها بمثل ما كنت أحنق لو أنه سبني، وظللت أرقبه بعيني بعد تلك الليلة.

الفصل الثاني عشر

بعد أنقضاء أربع سنوات على أشتغالي صبياً لدي جو.. وفي ليلة سبت.. كنا مجتمعين حول النار في حانى "البحارة الثلاثة المرحون" في أنتباه إلى مستر ووبسول وهو يقرأ الصحيفة بصوت جهير.. ولم يكن قد أنتهي بعد من قراءته عندما أنتهت إلى سيد غريب يتكي على ظهر المقعد المواجه لي. وسرعان ما تقدم ثم ألتفت إلينا وقال:

– لدي ما يحملني على الظن بأن بينكم حداداً يدعى جوزيف.. أو.. جو.. جارجريي فأيكم هو؟

فقال جو: هأنذا الرجل.

فأستطرد الرجل الغريب قائلا.

– لديك صبي يعرف عادة بأسم بيب فهل هو هنا؟

صمت:

– أنا هنا!

ولاحظت أن رأسه ضخم وجلده أسمر وأن عينيه غائرتان وحاجبيه كثيفان أسودان.. فقال:

– أود أن أتحدث معكما حديثاً خاصاً، وربما كان خيراً لنا أن نذهب إلى منزلكما.

فخرجنا ثلاثيتنا بين الصمت العاجب حتى إذا بلغنا منزلنا مضينا إلى حجرة الأستقبال حيث جلس السيد الغريب إلى المنضدة ثم قرب منه الشمعة وراح يتطلع إلى شيء في مفكرته ثم قال:

– أسمى جاجرز وأنا محام في لندن ولدي عمل غير عادي أقضيه معك.. والآن يا جوزيف جارجري.. إنني أحمل إليك عرضاً يريحك من تحمل تبعات الفتى صبيك، زيجب أن لا تتعارض في تركه يذهب عندما يطلب إليك ذلك لمصلحته.. هلا تريد شيئاً من أجل هذا العمل؟

فأجابه جو:

– أنا لا أحب أن أقف في سبيل بيب ولا أريد شيئاً نظير السماح له بالذهاب.

– حسناً جداً والآن أحب أن أخبرك بأن أمام بيب آمالا كبارا.

فشهقت وجو وتطلع كل منا إلى الآخر "مبهوتا" وعاد مستر جارجرز يقول:

– لدي تعليمات بأن أبلغه أنه سوف يمتلك أملاكاً طيبة وأن صاحب هذه الأملاك "الحالي" يرغب في أن يغادر بيب هذا المكان في الحال ليربة تربية أحد السادة.

إذن تحققت أحلامي وإذن فقد فاقت الحقيقة خيالي السابح وها هي مس هافيشام سوف تترك لي ثروة!! وأسترسل المحامي يقول:

– والآن يا مستر بيب.. أحدثك ببقية ما يجب أن تفهم أولا أن

الشخص الذي تلقيت منه تعليماتي يرجو منه أن تظل حاملاً اسم بيب.. وثانياً يجب أن تفهم أن أسم المحسن إليك سيظل سراً إلى أن يشاء هو البوح به.. كما أنك ممنوع من إجراء أي تحريات في هذا الصدد أو أن تذكر لأي فرد من الأفراد ما يجري بينك وبينه من أتصالات أو مراسلات وإذا كان لديك أعتراض على هذين الشرطين فأذكر ذلك الآن.. تكلم فقلت متعلثماً وبصعوبة أن لا مانع لدي فأستتلى يقول:

– لا أظن ثمة ا يمنعك، والآن يا مستر بيب.. سندخل بعد ذلك في مجرد تفاصيل الأتفاق: لدى مبلغ من المال يكفي لتعليمك ولنفقاتك فأرجو أن تعتبرني رائدك إذ المفروض أنك يجب أن تحصل على مزيد من التعليم يتفق مع تغير مركزك.

قلت إنني كنت أتلهف على ذلك دائماً فأقترح أسم مستر ماتيو بلوكيت– الذي سمعت مس هافيشام تذكره كأحد أقاربها– ليكون معلماً لي، فشكرت مستر جارجرز على اختياره ثم أخبرته بأنني سوف أجرب مغتبطاً ذلك السيد.

– حسناً.. يجمل أن تجربه في منزله وسأعد لك السبيل إلى ذلك وفي وسعك أن ترى أولاً ولده الذي يقيم في لندن.. فمتى ستذهب إلى لندن؟

فقلت وأنا أنظر إلى جو الواقف يتأملنا بلا حراك بما يفيد رغبتي في الذهاب على الفور ولكن المحامي قال:

– يجب أولاً أن تجيء لك بملابس جديدة.. بعد أسبوع من اليوم.. وسوف تحتاج إلى بعض النقود فهل أترك لك عشرين جنيهاً؟

ثم أخذ كيساً طويلاً عد منه المبلغ على المنضدة ثم دفعه إلى.. وبعد ذلك جلس يطوح بالكيس وهو يرمق جو ثم قال:

– حسناً يا جوزيف جار جرى.. إنك تبدو في الحقيقة غاية في الدهش فقال جو في لهجة حازمة:

– هو ذلك.

– المفهوم أنك في حاجة إلى شيء لنفسك ولكن ما رأيك إذا كانت التعليمات التي لدي تقضي بأن أقدم لك هدية على سبيل التعويض؟

فسأله جو:

– التعويض عن ماذا؟

– عن فقدك خدمات "بيب".

فوضع "جو" يده برفق على كتفي ثم قال:

– إن لبيب مطلق الحرية في أن يمضي مجاناً إلى المجد والثراء.. وإذا كنت تحسب النقود تعوضني عن فقد هذا الطفل الصغير الذي جاء إلى المصنع والذي كنت له خير صديق..

ثم لم يقو بعد ذلك على الأسترسال في حديثه فقال له المحامي:

– والآن ا جوزيف جارجري: أنبهك إلى أن هذه آخر فرصة لديك وأنني لا أقبل أنصاف الحلول، فإذا كنت تنوي الحصول على الهدية التي رخص لي أن أقدمها لك فلتتكلم لتحصل عليها، أما إذا كنت– على العكس– ترمي إلى القول بأنك...

وهنا.. تناهت دهشته.. عندما أوقفه جو عن الحديث فجأة وقد هم بأن يتشاجر معه!!

وعاد المحامي يقول لي:

– حسناً يا مستر بيب، بما أنك ستصبح سيداً فالأفضل أن تبادر إلى مغادرة هذا المكان ما أمكن وليكن ذلك بعد أسبوع من اليوم، وسوف تتلقى عنواني المطبوع في أثناء ذلك وفي وسعك أن تستقل عربة من مكتب عربات المسرح بلندن ثم توافيني على الفور.

وبعد أن غادرنا الباب الخارجي خلفه ثم جلسنا بجانب نار المطبخ نحملق في الفحم المشتعل وقد أخلدنا إلى الصمت فترة طويلة، وكانت أختي آنذاك في مقعدها ذي الوسائد بينما جلست "بيدي" تعمل بإبرتها إلى جانب جو وجلست أنا إلى جانبه الآخر وأخيراً قلت:

– هل أخبرت بيدي يا جو؟

– تركت لك هذا يا بيب.

– أفضل أن تخبرها أنت يا جو.

فقال:

– إن بيب سيد ذو ثروة منذ الآن.. بارك الله له فيها.

فسقطت أشغالها من يدها وتطلعت إلي بينما أمسك جو بكتبه وراح يتطلع بدوره إلي، فرنوت إلى الأثنين معاً.. وبعد لحظة.. أخذ الأثنان يهنئاني من قلبيهما وأن خالج تهنئاتهما بعض حزن أستهجنته منهما.. ثم

حاولت بيدي أن تنقل لأختي فكرة "مجملة" عما حدث ولكن محاولتها ذهبت إدراج الرياج.

وبعد يومين.. أرتديت أحسن ملابس لدي ثم مضيت إلى المدينة مبكراً ما أستطعت أن آمل في وجود الحوانيت مفتوحة فبدأت بزيارة دكان الخياط حيست قيست لي بعض الثياب الجديدة، وبعد ذلك مضيت إلى دكان القبعات فدكان الأحذية وحوانيت أخرى ثم مضيت إلى منزل مستر بمبلشوك وكان قد زاد دكان الحدادة وسمع بالأنباء وأعد وجبة خفيفة تكريماً لي، فأمسك بكلتا يدي وبالغ في الأحتفاء بي كما لو كنا دائماً أفضل صديقين. وبعد أن أبدي إعجابه بي لبضع لحظات.. قال:

– أن تفكيري في أنني كنت وسيلة متواضعة أدت إلى ذلك يعتبر خير مكافأة أفخر بها!

ثم عزم على أن أتناول من الفراريج وشريحة من اللسان وبعض النبيذ ثم صافحني بحرارة عدة مرات وأبلغني لأول مرة في حياتي ما أعتاد أن يقوله عني «أن هذا الصبي ليس صبياً عادياً. أجعل بالك جيداً لما أقول.. أن حظه لن يكون حظاً عادياً» وأخيراً أسستأذنت في الأنصراف وعدت إلى منزلي.

وأنصرمت الأيام.. وفي صبيحة الجمعة.. ذهبت مرة أخرى إلى منزل بمبلسوك لأرتدي ملابسي الجديدةوأزور مس هافيشام ففتحت لي سارا بوكيت البوابة وقادتني إلى الطابق العلوي. وكانت مس هافيشام تقوم بأحد تمارينها بمنضدة الغرفة الطويلة وقد أعتمدت على عصاها فقلت لها:

– سأرحل إلى لندن في الغد يا مس هافيشام وحسبتك تأذنين بأن أستودعك فقالت وهي تعبث حولي بعصاها كأنما هي الإم الجنية التي سحرتني وبقى أن تمنحني آخر "الرتوش".

– إنك نشيط خفيف يا بيب.   فتمتعت قائلا:

– لقد أصبحت غنياً منذ رأيتك آخر مرة يا مس هافيشام وأنا شاكر ذلك الفضل يا مس هافيشام.

فقالت وهي تتطلع مغتبطة إلى سارة بوكيت الحسود.

– أجل. أجل.. فقد قابلت مستر جاجرز وسمعت منه ذلك يا بيب.. إذن سترحل غداً؟

– نعم يا مس هافيشام.

– وهل تبناك شخص غني؟

– نعم يا مس هافيشام.

– ألم يذكر أسمه؟

– كلا يا مس هافيشام.

فأسترسلت تقول.

– حسناً.. إن أمامك سبيلا للحياة يبشر بالخير فيكن طيباً جديراً به وأعمل بأرشادات مستر جارجز.

ثم رنت إلي وإلى سارة فأرتسمت على أسارير اليقظة أبتسامة قاسية

وأردفت مس هافيشام تقول:

– وداعاً يا بيب ولعلك تعرف ضرورة الإحتفاظ دائماً بأسم بيب

– نعم يا مس هافيشام.

– وداعاً يا بيب.

ثم مدت يدها فجثوب على ركبتي ورفعت يدها إلى شفتي.. وهكذا غادرتها لأعود إلى منزل بمبلشوك حيث خلعت ملابسي الجديدة وعملت منها حزمة ثم رجعت إلى منزلي في ثوبي القديم وأنا أحس في الحقيقة رائحة أكبر رغم الحزمة التي كنت أحملها.

والآن؟ أنقضت تلك الأيام الستة التي كان مفروضاً أن تنصرم في بطء كبير.. تقضت غاية في السرعة وذهبت لحالها ثم بدا لي الغد أكثر ثباتاً من نظرتي إليه، فقد كان علي أن أغادر القرية في الصباح.. فأفضيت إلى "جو" برغبتي في السير وحدي. وحلمت طوال الليل في نومي المتقطع بعربات تمضي إلى جهات خاطئة بدلاً من أن تمضي إلى لندن وبأنها كانت تجرها كلاب.. وأحياناً قطط.. وأحياناً أخرى رجال.. دون أن تجرها أبداً جياد!! وشغلني ما تمنى به الرحلات العجيبة من الفشل إلى أن لاحت تباشر الفجر وبدأت الطيور في التغريد.. ثم نهضت من نومي فأرتديت ملابسي ولكن كانت تعوزني العزيمة على النزول إلى الطابق السفلي إلى أن صاحت بي "بيدي" أنني تأخرت.

وكان فطاري مستعجلاً لا طعم له ثم قبلت أختي وبيدي وألقيت ذراعي حول عنق جو ثم حملت حقيبتي ومضيت إلى الخارج.. مضيت

بخطى واسعة معتقداً أن الذهاب أيسر ما ظننته، فأخذت أصفر مستخفا بالذهاب ولكن القرية كانت غاية في الدعة والهدوء وفيها كنت غاية في البراءة والصغر... وكان كل ما وراءها غاية في الغموض والعظمة في عيني ولذلك ما لبثت في لحظة واحدة أن أنفجرت باكياً، حتى إذا بلغت عمود اللافتة في نهاية القرية وضعت يدي عليه وقلت:

– وداعاً يا قريتي العزيزة.. وداعاً يا صديقتي العزيزة!

"هذه هي نهاية الرحلة الأولى من مراحل الآمال التي كانت تساور بيب".

الفصل الثالث عشر

كانت الرحلة من قريتنا إلى العاصمة تستغرق حوالي خمسة ساعات فلما بلغت مكتب مستر جاجرز أخبرني الكاتب بأنه في المحكمة وأنه ترك تعليمات بأن أنتظر في حجرته، ثم قادني إلى غرفة داخلية في القتام والظلام.. وبعد أن أنتظرت فترة طويلة وصل مستر جاجرز فأندفع نحوه خلق كثيرون من الرجال والنساء كانوا في أنتظاره خارج مكتبه فخاطب أثنين من الرجال قائلا وهو يلوح بأصبعه.

– ليس لدي ما أقوله لكما الآن. أريد أن أعلم أكثر مما أعرفه. والنتيجة أن هذا الموضوع مريب.. لقد قلت لكما منذ البداية إنه موضوع مشكوك فيه! هل دفعتما أتعابي لو يميك؟

فأجاب الرجلان معاً: نعم يا سيدي.

فقال وهو يلوح إليهما بيده ليوليهما ظهره:

– حسناً جداً.. إذن في وسعكما الذهاب ولن أقبل شيئاً منكما.. أما إذا نطقتما بكلمة أخرى فلن أتولى الدفاع عنكما.

فخلع أحدهما قبعته وأخذ يقول: كنا نظن يا مستر جاجرز..

فقاطعه مستر جاجرز:

– هكذا ما طلبت إليكما أن لا تفعلاه، كنتما تظنان!! أنني أتولى "الظن" عنكما وفي ذلك الكفاية. أما إذا أحتجت إليكما فإنني أعرف أين

أجدكما ولا أريد أن تبحثا أنتما عني.. قلت لن أقبل شيئاً ولا أحب أن أسمع كلمة واحدة.

فتبادل الرجلان النظرات وهو يدفعهما خلفه ثم تراجعا في تواضع حتى لم يعد يسمع لهما صوت.. وبعد أن عامل رائدي الآخرين نفس المعاملة، أدخلني إلى غرفته الخاصة حيث طلب إلي أن أذهب إلى فندق برنار حيث يقيم مستر بوكيت الشاب وحيث أعد فراش لراحتي، على أن أبقى مع مستر بوكيت حتى يوم الأثنين ثم أذهب معه لزيارة إلى منزل والده كي أجرب مدى حبي للإقامة هناك.. ثم سلمني مرتبي وبطاقات بعض التجار الذين أتفق على أن أتعامل معهم لشراء جميع أصناف الملابس وكل ما عسى أن أحتاج إليه من أشياء.. وكان على ويميك– كاتبه– أن يرافقني إلى منزل مستر بوكيت الشاب..

وفيما كنا سائرين.. ألقيت نظرة على مستر ويميك فألفينه رجلاً جافاً يميل إلى القصر، ربع الوجه جامد الأسارير.. رجحت من ملابسه البالية أن يكون عزباً وكانت عيناه براقتين صغيرتين حادتين سوداوين وشفتاه رفيعتين قاسيتين.. سألني:

– إذن فأنت لم تزر لندن من قبل؟

فأجبته:

– كلا.. إنها مكان غاية في الشر.

– إنك قد تخدع وتجرد من نقودك وتقتل في لندن ولكن ثمة كثيرون من الناس في غيرها يقترفون نفس الأشياء.

وفجأة.. بلغنا فندق برنارد حيث يقيم مستر هربرت بوكيت. وهو عبارة عن مجموعة من المنازل الحقيرة الموحشة مقسمه إلى شقق أكثرها للإيجار.. فقادني مستر ويميك وأرتقينا درجاً إلى شقة بالطابق العلوي حيث كتب أسم مستر بوكيت الصغير على الباب، وجاء ببطاقة على صندوق البريد «سيعود قريباً» وعندئذ تمنى لي مستر ويميك يوماً طيباً ثم غادرتني.. ولم يمض نصف ساعة حتى سمعت وقع خطوات هربرت على الدرج.. وكان يحمل تحت كل من ذراعيه حقيبته من الورق ويمسك بأحدى يديه سلة فاكهة وقد تقطعت أنفاسه.

قال «مستر بيب؟» قلت «مستر بوكيت؟» فصاح:

يالله! أنا جد آسف ولكني كنت أعرف أن عربة تصل من بلدتك في الظهر فظننتك قادما فيها.

وبعد أن بذل جهداً في معالجة الباب، أنصاع الباب فدخلنا وعندئذ قال:

– يعتقد والدي أنك تؤثر أن تقضي يوم الأحد معي على أن تقضيه معه وأنك قد ترغب في نزهة على الأقدام في أنحاء لندن. وأنا واثق أنني سأكون سعيداًَ بأن أفرجك على لندن.. إن مسكننا غير فاخر بحال لأنني أكسب قوتي بعرق الجبين.. وهذا مخدع نومك وقد أستأجرنا أثاثه لهذه المناسبة وأعتقد أنه سيفي بالغرض منه.

ولما وقفت قبالة مستر بوكيت الشاب فوجيء وأرتد قائلاً:

– يالله! أأنت الصبي الذي تشاجرت معه؟

– وهل أنت السيد الشاب الشاحب الأسارير؟

وظل كل منا يتصفح وجه الآخر إلى أن أنفجرنا كلانا في الضحك وقال:

– كلما فكرت في أنك أنت!

– قلت:

– وكلما فكرت أنا في إنك أنت!

– ألم تكن قد أصبحت غنياً في ذلك الوقت؟

قلت: كلا.

فقال مؤمناً:

– كلا. فقد سمعت أن ذلك حدث أخيراً جداً.. أما أنا فكنت إذ ذاك أجرى وراء ثروة طيبة فقد أرسلت مس هافيشام تطلبني لنرى هل تستطيع التعلق بي ولكنها لم تستطع بحال.. لم تحبني.. وربما لو أنني وفقت إذ ذاك لكنت قد خطبت استيلا.

– وكيف تحملت فثلك؟

– أعوذ بالله! إنني لم أهتم بذلك كثيراً لأن الفتاة سريعة الإنفعال.. جامدة متغطرسة.. هوائية إلى أبعد الحدود! فقد ربتها مس هافيشام لتنتقم من الجنس الخشن بأسره.

– وما قرابتها لمس هافيشام؟

– لا قرابة على الإطلاق فهي فقط ربيبتها التي تبنتها.

– ولماذا تريد الإنتقام من الجنس الخشن كله؟ أي أنتقام هو؟

– كيف يا مستر بيب! ألا تعرف؟ – كلا.

– يا لله! إن لذلك قصة أدخرها لوقت العشاء.

وكان لهربت لهجة صريحة غير معقدة شديدة الجاذبية.. ولعلي لم أر في حياتي ما أستطاع أن يعبر لي تعبيراً أقوى من تعبيره في كل نظرة ولهجة منه عن مبلغ عجزه التام عن أتيان شيء خفي ودنيء.. وبينما يحيط به ما يبعث على الأمل الرائع كان في نفس الوقت محوطاً بما يهمس إلي بأنه لن يوفق في حياته أو يغدو غنياً.

رويت له قصتي وأهتممت بأن أبرز له كيف منعت من التحري عن المحسن إلي. فراح بدوره في أثناء العشاء يروي لي قصة مس هافيشام قائلاً:

– كانت مس هافيشام طفلة مدللة ماتت أمها وهي ما زالت في المهد فلم يحرمها والدها من شيء إذ كان واسع الثراء شديد الكبرياء فنشأت ابنته على غراره ولم تكن طفلته الوحيدة بل كان لها أخ من والدها لأن والدها كان قد تزوج طباخته على الأرجح.

– كنت أظنه متكبراً!!

– نعم كان ذلك ولذلك تزوج الأخرى في السر، فلما ماتت مع انقضاء الأيام أفضى لأبنته بما فعل ثم أصبح ذلك الأبن فرداًُ من الهائلة وأقام في المنزل الذي تعرفه. ولما ترعرع الأبن وأصبح شاباً تحول إلى عربد مبذر وكلا الأمرين سيء.. ولذلك حرمه والده أخيراً من الميراث حتى إذا

حضرته الوفاة رق قلبه فنركه والده على جانب من الثراء وأن لم يعدل مس هافيشام في غناها. وسرعان ما أتي الشاب على ثروته وغرق في الديون.. ثم ظهر على المسرح بعد ذلك رجل أحب مس هافيشام وراح يطاردها من قريب حتى تدلهت في حبه فأستغل ذلك الحب في أن أبتز منها مبالغ ضخمة من المال. وكا أقاربها فقراء ما كرين فيما عدا والدي الذي لم يكن رغم فقره أنانياً أو حقوداً. ولما كان وحده الحر بينهم فقد حذرها من أنها تغالي في إرضاء هذا الرجل وتضع نفسها بلا تحفظ في قبضته.. ولذلك أنتهزت أول فرصة فأمرته غاضبة بأن يغادر منزلها في حضرة ذاك الرجل! ومنذ ذلك الوقت لم يرها والدي قط.. ولنعود إلى الرجل وننتهي منه أقوال إن الزفاف تحدد كما دعى ضيوف العرس ثم جاء اليوم ولكن العريس لم يحضر بل كتب لها خطاباً..

قلت محدساً:

– هل تلقته عنداما كانت ترتدي ثوب الزفاف؟ في التاسعة إلا ثلث؟

فأومأ هربرت برأسه وقال:

– نفس الساعة ونفس الدقيقة وعندهما أوقفت بعد ذلك كل ساعات الحائط. وعندما شفيت من المرض الذي أنتابها أهملت كل المكان كما رأيته ولم تقع عيناها منذ ذلك الحين على ضوء النهار.

فسألته بعد تأمل وتفكير فيما قال:

– أهذه كل القصة؟

– كل ما أعلمه عنها ولكني نسيت شيئاً واحداً: كان المطنون أن الرجل الذي شاءت وضع ثقتها فيه إنما فعل ذلك بأتفاق مع أخيها من والدها وأنها كانت مؤامرة بينهما تقاسما أرباحها.

قلت:

– إني لأتساءل كيف لم يتزوجا ويحصل على كل أملاكها!

– لعله كان قد تزوجها قبل ذلك.

– وماذا حدث للرجلين؟

– غرقا في عار وخزي شديدين– إذا جاز أن يكون ثمة ما هو أشد.. وفي دمار.

– أهما الآن على قيد الحياة؟

– لا أدري.. وأنت الآن تعرف كل ما أعرفه عن مس هافيشام.

ثم سألت هربرت في مجرى الحديث عما يكون فأخبرني بأنه رأسمالي يؤمن على السفن.. وأن لم يوجد في الحجرة أثر لأعمال السفن أو ما ينم على رأس ماله! ثم قال:

– لن يهدأ لي بال لمجرد أستغلال رأس مالي. في التأمين على السفن بل سأشتري كثيراً من أسهم التأمين على الحياة وأعمل قليلاً في ميدان التعدين. وأعتقد أنني سأرسل إلى جزر الهند الشرقية في طلب بضائع من حرير وشيلان وتوابل وأصبغة وعقاقير وأخشاب ثمينة لأنها تجارة شائقة.

قلت: وأرباحها كبيرة ضخمة. قال: هائلة!!

ثم أستطرد يقول وأبهاماه في جيبي صديريته:

– أعتقد كذلك أنني سأتاجر مع جزر الهند الشرقية في السكر والطباق والروم ومع سيلان خاصة في أنياب الفيلة؟

قلت: ستحتاج إلى عدد كبير من السفن.

فقال: أسطول كامل!

وإذ غلبتني على أمري عظمة هذه المعاملات سألته: أين تتجر الآن السفن التي أمن عليها؟ فأجاب: لم أبدأ التأمين بعد.. أنني أرقب ا حولي بأهتمام لأنني في دار للمحاسبة.

– وهل يدر الأشتغال بدور المحاسبة ربحاً؟

– أواه.. كلا.. كلا بالنسبة إلي. أنها لا تدر شيئاً علي فأضطر أن أعول نفسي..... هذا شيء عظيم ولا يلبث أن يحين الوقت الذي ترى فيه منفذاً لك فتمضي قدماً وتكون لنفسك رأسمال وبعد ذلك تصبح ذا شأن لأنك إذا ما كونت رأس مالك لن يبقى ما تعمله سوى أن تستثمره.

كان له في حديثه نفس طريقته في إدارة القتال يالحديقة.. نفس الطريقة! وكذلك كانت روحه في تحمل فقره تتمشى تماماً مع روحه في تحمل الهزيمة.ز وكان جلياً أن لا شيء يحيط به غير ما يملكه من أبسط الحاجات والضرورات لأن كل ما وقعت عليه أتضح أنه مرسل لحسابي من المقهى وغيره.

وفي مساء ذلك السبت مضينا إلى نزهة على الأقدام في شوارع لندن

ثم دخلنا المسرح بنصف أجرة. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى كنيسة "وستمنستر آبي" وفي العصر مشينا إلى منتزهات بارك.. وبعد ظهر الأثنين مضينا إلى منزل مستر بوكيت في همر سميث حيث قدمت إلى مستر ومسز بوكيت في حديقتهما ثم صحبني مستر بوكيت إلى المنزل وأراني حجرتي، ثم طرق بابي حجرتين أخريين مماثلين وقدمني إلى شاغليهما وأسماهما بنتلي درامل وستارتوب، أولهما شاب بادي العمر ضخم الجثة كان يصفر بين شفتيه، أما الثاني ستار توب فكان أصغر سناً ومظهراً وكان يطالع وهو ممسك برأسه كأنما كان يخشى أن ينفجر بكثرة المعلومات الزائدة على طاقته.

وبعد يومين أو ثلاثة عندما أستقررت في حجرتي وذهبت عدة مرات إلى لندن وطلبت إلى أصحاب المتاجر كل ما كنت في حاجة إليه، دخلت مع مستر بوكيت في حديث طويل فوجدته يعلم عن العمل الذي أنتويته أكثر من مما كنت أعمله أنا، لأنه أشار إلى أن مستر جاجرز قد أخبره أنني لم أترسم لي مهنة بالذات وإنما وجب أن أتعلم بما يكفي لأن أحافظ على مستواي كشاب في وسط ناجح.. وبالطبع وافقت لأنني كنت لا أعلم ما يناقض ذلك فنصحني أن أعشى أماكن خاصة في لندن لا تزود بالمعلومات التي تعوزني. وكان عليه أن يكون مرشدي في كل ما أدرسه فأظهر لي الود مقروناً بالإعجاب.

وفي وسعي أن أقرر في الحال أنه كان على الدوام متحمساً شريفاً في تحقيق أتفاقه معي مما جعلني متحمساً شريفاً في تحقيق ما أتفقت عليه معه، ولو أنه أظهر عدم أكتراثه كأستاذ لي لكنت فعلت نعه نفس الشيء

كتلميذ له.

ولما حسمت تلك الموضوعات وبدأت في العمل مقبلاً عليه، خطر ببالي لو أنني أحتفظت بمخدعي في فندق برنارد لأختلفت حياتي أختلافاً محبباً ولما ساءت أخلاقي عند الحد الذييلائم المجتمع الذي يغشاه هربرت، ولم يعارض مستر بوكيت في ذلك الترتيب ولكنه أستحثني قبل أن أخطوا أي خطوة في ذلك السبيل إلى ضرورة أخذ رأي رائدي، وعندما أبديت هذه الرغبة إلى مستر جاجرز وافق وأمر ويميك أن يدفع لي عشرين جنيهاً لشراء الأثاث اللازم.

الفصل الرابع عشر

تلقيت في صبيحة يوم الأثنين خطاباً من بيدي تخبرني فيه بنا أعتزمه جو من زيارتي بفندق برنارد في الصباح التالي، ولم أرحب بتلك الزيارة ولو أنني أستطعت إبعاده بدفع نقود لفعلت ذلك بكل تأكيد، ولكنني أرتحت مع ذلك إذ عرفت أنه قادم إلى مسكني بلندن لا إلى منزل مستر بوكيت في همر سميث، إذ كان هناك أعتراض قوي لدي في أن يراه هربرت أو والده– وأنا أحترم كلاً منها– ولكني كنت أكلاه جداً أن يراه درامل الذي كنت أحتقره لكسله وغبائه وكبريائه.

وأستيقظت مبكراً في الصباح وجعلت حجرة الأستقبال ومائدة الإفطار تتخذان أبهى منظر وسرعان ما سمعت "جو" على الدرج، عرفت أنه جو من طريقته الجلفة في أرتقاء الدرج– إذ كانت خير أحذيته أكبر كثيراً من صعوده، وأخيراً طرق طرقة واحدة خافتة على الباب ثم دخل فصحت به:

– جو! كيف حالك يا جو؟ – بيب! كيف حالك يا بيب؟

يسرني أن أراك يا جو. ناولني قبعتك.

ولكن جو خلعها بعناية بكلتا يديه كأنما هي عش طائر ممتليء بالبيض أو قطعة من ممتلكاته لا يرضى أن تفارقه ثم وقف يحدثني من فوقها بغير أرتياح فقال:

– كم ترعرعت وسمنت وغدوت سيداً! الواقع أنك لتشرق ملك

وبلادك.

– وأنت يا جو.. تبدو رائعاً في صحتك.

– شكراً لله.. إن أختك ليست بأسو مما كانت، أما بيدي فبصحة جيدة وعلى أستعداد لتقديم أية معاونة.. وكذلك أصدقاؤك جميعاً ليسوا أسوأ حال فيما عدا ووبسول الذي هجر الكنيسة ليمتهن مهنة التمثيل.

وفجاة. دخل هربرت الحجرة فقدمت له جو. ولما مد له هربرت يده ليصافحه أرتد جو إلى الوراء وجعل يده بجانب "عش الطائر" ثم قال:

– خادمك ا سيدي وأرجو أن يكون السيدان قد وجدا هذه القبعة صحية وإذا صح ما يقوله أهالي لندن فهذا مكان صالح جداً ولكني لا أرضى أن أربي فيه خنذيراً لو أنني شئت أن يشب معافي وبدينا.

ولما دعوته للجلوس إلى المائدة في أنحاء الحجرة في البحث عن مكان مناسب يضع فيه قبعته.

وأخيراً.. أوقفها على حافة الموقد في ركن قصى راحت تسقط منه بعد ذلك بين حين وآخر.

وكان هربرت يرأس الفطار فسأله:

– أتتناول شاياً و قهوة يا مستر جارجري؟

فأجابه جو مرتبكاً من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه:

– أشكرك يا سيدي.. سأتناول ما تفضله.

– ما رأيك في القهوة؟

فأجابه جو وقد بدا عليه بجلاء عدم أرتياحه للفكرة:

– أشكرك يا سيدي. بما أنك من الظرف بحيث أخترت القهوة فأنني لن أعارض آراءك. ولكن ألا ترى الطقس حاراً بعض الشيء؟

فقال هربرت:

– قل إذن شاياً.

وص له فنجانه.. وهنا تدحرجت قبعة جو من على حافة الموقد فأندفع من مقعده وألتقطها ثم ثبتها في نفس المكان. أما عن ياقة قميصه رياقة معطفه فكان التأمل فيهما يدعو إلى الأرتباك.

ترى لماذا يعصر الرجل نفسه إلى هذا الحد قبل أن يعتبر نفسه مهندما؟ ولماذا يرى من الضرورة أن يعاني الأمرين من أجل ملابس عطلته؟ ثم غرق فجأة في التفكير والتأمل في شوكته وقد توسطت المسافة بين صحنه وفمه، وأخذ يسعل مرات عديدة تلفت الأنظار وقد جلس بعيداً جداً من المائدة بحيث كان ما يتساقط منه أكثر مما يأكله! ولذلك أغتبطت من كل قلبي عندما غادرنا هربرت إلى المدينة "لندن".

ولم يكن بي من الأحساس أو الشعور الطيب ما يحملني على العلم بأن ذلك كله كان خطيء أنا، وأنني لو كنت طبيعياً مع جو أكثر بما كنته لكان هو كذلك معي ولذلك شعرت بنفاذ الصبر والغضب منه، فلما بدا يقول:

– والآن يا سيدي وقد أصبحنا وحدنا..

قاطعته قائلاً:

- يا جو! كف تدعوني سيدك؟

فتأملني لحظة بما يشبه اللوم بعض الشيء ثم عاد يقول:

- الآن وقد أصبحنا وحدنا فساذكر لك سبب زيارتي: كنت في الحانة ذات المساء فتقدم مني بمبلشوك وأخبرني أن مس هافيشام ترغب في التحدث إلي وفي اليوم التالي ذهبت وقابلتها فسالتني إذا كنت أتراسل معك فلما ردتت بالإيجاب طلبت إلي أن أخبر بأن استيلا قد عادت إلى البيت وأنها تغتبط لرؤيتك. لقد أنتهيت الآن يا سيدي من مهمتي.

ثم نهض عن مقعده وأسترسل يقول:

- وإنني يا بيب أرجو لك الخير والتوفيق دائماً إلى أوج أعظم وأسمى.

- ولكنك لن تذهب الآن يا جو.

- أجل أنا ذاهب.

- ألا تأتي للعشاء يا جو؟

- كلا. لن آتي.

وتلاقت أعيننا فتبدت الرسميات كلها من ذلك القلب الشهم وهو يمد لي يده ويقول:

- بيب.. يا صديقي العزيز القديم.. إن هذه الملابس لا تناسبني فإنني لا أصلح لغير مصنع الحدادة والمطبخ أو المستنقعات، وإنك لتعيب أقل

من هذا كثيراً لو تخيلتني في ثوب المصنع وفي يدي المطرقة أو حتى غليوني وإنكك لتعيب أقل إذا فرضنا بك رغبة في رؤيتي ثم أتيت وتطلعت من نافذة المصنع فرأيت هناك جو الحداد يعمل بجانب سندانه القدم وقد أرتدى مرولته العتيقة المحترقة ملازماً عمله القديم.. باركك الله يا عزيزي القدم بيب.. باركك الله!

كان بالرجل وقار ساذج ثم مسح برفق على جبيني ومضى.. وما إن أستردت جأشي ثانية حتى عدوت خلفه وبحثت عنه في الشوارع المجاورة.. ولكنه كان قد ولى.

الفصل الخامس عشر

أستقللت عربه العصر إلى المدينة فوصلت إلى هناك في ساعة متأخرة من المساء. وقضيت الليل ف فندق «الخمزير الأزرق» وأستيقظت مبكراً في الصباح لأمضي إلى منزل مس هافيشام. وكان الوقت مبكراً جداً للقيام بهذه الزيارة ولذلك أخذت أسير متكاسلاً إلى الريف فكر في ولية أمري وحاميتي وأرسم في خاطري صوراً مشرقة للخطط التي تعدها لي فقد تنبت استيلا كما تفضلت بأن تتبناني ولا يبعد أن يكون في عزمها أن تنشئنا معاً وأن تكون قد أعتزمت أن تجعلني أعود إلى المنزل الموحش وأدخل ضياء الشمس إلى حجراته وأن أدير الساعات وأشعل نيران المواقد الباردة. وبالأختصار أتولى الأعمال البراقة التي يعملها فارس الروايات الخيالية ثم أتزوج الأميرة.

وهكذا رسمت لسيري خطته بحيث أصل إلى المنزل في موعدي القديم. ولما ضغطت الجرس فتح الباب آخر رجل كنت أتوقع أن أراه هناك فصحت:

– أورليك!

– آه... السيد الشاب! أن ثمة تغييرات عداك ولكن أدخل.. أدخل. فإنه مما يخالف الأوامر التي لدي أن أترك البوابة مفتوحة.

فدخلت وأغلق هو البوابة ثم أنتزع المفتاح وسألني:

- كيف قدمت إلى هنا!

فأجبته غاضباً:

- قدمت إلى هنا على رجلي.

- أقدمت لتبقى هنا إلى الأبد؟

- أظنني يا سيدي الشاب لست هنا لضرر أو أذى.

ولم أكن واثقاً من ذلك فأنحدرت إلى نهاية الممر الطويل حيث وجدت سارة بوكيت التي قادتني إلى حجرة مس هافيشام. وقالت هي:

- أدخل يا بيب.

كانت في مقعدها بجانب المنضدة القديمة وقد أرتدت ثوبها القديم وعقدت يديها على عصاها. وبجانبها كانت تجلس سيدة أنيقة لم أرها من قبل.

وعادت مس هافيشام تقول:

- أدخل يا سيدي. كيف حالك يا بيب؟ أتقبل يدي كأني ملكة؟ كيف؟

- سمعت يا مس هافيشام أنك تعطفت فرغبت في أن آتي وأقابلك ولذلك جئت على الفور.

فرفعت السيدة- التي لم أرها من قبل- عينيها وتطلعت إلي بذهول وكبرياء فرأيت أنهما عينا استيلا ولكنها كانت قد تغيرت كثيراً وازدادت

جمالاً وأنوثة وتطورت تطوراً رائعاً بدا إلي معه أنني لم أتقدم خطوة واحدة... بل خيل إلي وأنا أرنو إليها أنني أرتددت بسرعة وبلا أمل إلى ما كنت عليه ذلك الصبي الفظ الأمي !! ثم مدت لي يدها فغمغمت متعلثما بالسرور الذي أحسسته إذ رأيتها مرة أخرة وبمدى لهفتي على ذلك ومنذ زمن طويل جداً فسألتني مس هافيشام بنظرتها الشرسة وبالضرب بعصاها على المقعد الذي بيننا إشارة منها أن أجلس عليه:

– أترى أنها تغيرت كثيراً يا بيب؟

– عندما دخلت يا مس هافيشام أعتقدت أن لا شيء هنا من استيلا سواء وجهها أو قوامها أما الآن فقد ألتصقت كلها ألتصاقاً عجيباً بتلك.. ماذا؟ أتعني أن تقول استيلا القديمة؟ لقد كانت متغطرسة سبابة وأنت الذي شئت أن تبتعد عنها. ألا تذكر ذلك؟

قلت مرتبكاً إن ذلك كان منذ زمن بعيد وأنني لم أر أحسن منها إذا من يشبهها.. فأبتسمت استيلا بهدوء تام وقالت إنها لا تشك في أنني كنت على حق وأنها كانت سمجة جداً وعندئذ سألها مس هافيشام: وهل هو تغير؟.فرنت إلى استيلا وقالت: جداً.

فأخذت مس هافيشام تداعب شعرها وتقول:

– أأصبح أقل فظاظة وضعة؟

فضحكت استيلا وتطلعت إلي إذ كانت لا تزال تعاملني كصبي ولكنها خلبت لي. وقد كان مقرراً أن أمكث هنالك بقية اليوم ثم أعود إلى الفندق في الليل وإلى لندن في اليوم التالي. وبعد أن تحدثنا قليلاً بعثت بنا مس

هافيشام لنزهة في الحديقة المهملة ولما أقتربنا من المكان الذي كنت قد تشاجرت فيه مع السيد الشاب الشاحب الأسارير توقفت استيلا وقال:

– لا شك أنني كنت مخلوقة شاذة صغيرة عندما أختبأت وشاهدت تلك المشاجرة في ذلك اليوم ولكني فعلت ذلك ونعمت بذلك المشهد كثيراً فأخبرتها بأنني أصبحت وإياه صديقين حميمين فقالت:

– صحيح؟ أظنني أذكر أنك درست على والده؟

– نعم.

قلت ذلك على غير إرادة مني في الغالب لأن ذلك كان يجعلني أبدو أشبه بصبي صغير السن.

وكانت الحديقة– لفرط إهمالها– تختنق بالحشائش مما جعل السير فيها غير مريح. وبعد أن درنا بها مرتين وثلاثاً عدنا ثانية إلى فناء الجعة فذكرتها بالمكان الذي جاءت إليه من المنزل لتقدم لي لحماً وشراباً ولكنها قالت:

– لا أتذكر.

فقلت: ألا تذكرين أنك جعلتني أبكي؟

فهزت رأسها وتلفتت حولها قائلة: كلا..!

فأعتقدت أنها لا تذكر، ولا يهمها إطلاقاً أن تحماني مرة أخرى على البكاء من صميم قلبي، وهو البكاء الذي يعد أعنف وأنكي أنواع البكاء... ثم قالت:

– يجب أن تعرف أنني بلا قلب أو شفقة أو حنان..

سمحت لنفسي أن أشك في ذلك.. وقلت: يستحيل أن يكون مثل ذلك الجمال بلا قلب، فقالت:

– أنا جادة فإذا فدر أن نلتقي مرار فيجمل أن تعتقد ذلك على التو. تعال نقم بجولة أخرى حول الحديقى ثم ندخل.. هديء روعك فلن تذرف اليوم دمعاً لقسوتي. سوف تعني بي وتدعني أتوكأ على كتفك!!!

ثم أمسكت ثوبها الجميل بإحدى يديها، وبالأخرى مست كتفي برفق في أثناء سيرنا، فمشينا حول الحديقة المخربة مرتين أو ثلاثا، ولكنها كانت مزدهرة في عيني "لفرط سعادتي!!". وأخيراً عدنا إلى المنزل حيث سمعت أن رائدي قدم لمقابلة مس هافيشام من أجل بعض الأعمال وأنه سيعود للعشاء.. وكانت مس عهافيشام في مقعدها تنتظرني، فلما مضت استيلا لتعد العشاء بنفسها وتركتنا نحن الأثنين وحدنا أستدارت نحوي مس هافيشام وقالت هامسة:

– هل هي جميلة، أنيقة، ناضجة؟ أمعجب بها أنت؟

– هذا ما يجب على كل من يراها يا مس هافيشام.

فطوقتني بإحدى ذراعيها وقربت رأسي إلى رأسها وهي جالسة في مقعدها ثم قالت لي:

– أحبها! أحبها! كيف تعاملك؟

وقبل أن أجيبها "لو أنني أستطعت الجواب كلية عن مثل هذا السؤال الصعب"، عادت تقول:

– أحبها.. أحبها.. أحبها.. أحبها إذا كانت هي منت عليك وحابتك أحبها إذا خرجتك. أحبها إذا هي مزقت قلبك إرباً! أحبها، أحبها! أصغ إلي يا بيب.. لقد تبنيتها لتكون محبوبة، وربيتها وعلمتها لتكون محبوبة فأحبها! سأخبرك ما هو الحب الحقيق: الحب هو العبادة العمياء. الخضوع التام. الثقة والإيمان رغم نفسك ورغم كل العالم، بحيث تهب من تحبه كل قلبك وروحك.. كما فعلت أنا.

وعندما نطقت بالكلمات الأخيرة، ندت عن صدرها صرخة مدوية ثم نهضت من مقعدها وضربت في الهواء كأنما كانت تود أن تضرب جسمها في الجدار ثم تسقط جثة هامدة. وبعد فترة وجيزة دهشت إذ رأيتها تسترد جأشها ثم يدخل الحجرة فجأة مستر جا جرز الذي تحدث إيلها بضع كلمات ثم دعاني لأتناول العشاء مع استيلا ومع سارة بوكيت بينما ظلت مس هافيشام جالسة في مقعدها لأنها لم تكن تأكل على الإطلاق مع جماعة أو تشرب. وبعد أن تعشينا جيداً، وضعت أمام رائدي زجاجة نبيذ معتق متاز فغادرتنا السيدتان.

لم أر في حياتي مثل مستر جاجرز في تحفظه تحت سقف ذلك المنزل.. إذا كان يحتفظ لنفسه بنظراته، فقلما وجه عينيه إلى وجه استيلا في أثناء العشاء. ولما تركت وحدي معه جعلني أضيق به كثيراً، إذ كلما رآني أهم بأن أوجه إليه سؤالاً، رنا إلي وفي يده مأسه وفي فمه نبيذه يديره كأنما يتوسل إلى أن الحظ أن لا فائدة من سؤالي لأنه يقوى على الإجابة عنه!! وفيما بعد.. صعدنا إلى حجرة مس هافيشام فلعبنا الورق.ز وفي الفترة بين العشاء واللعب كانت مس هافيشام قد أخذت بعض مجوهراتها الجميلة من

منضدة الزينة ووضعتها بشعر استيلا وحو نحرها وذراعيها، وشاهدت رائدي يتطلع إليها من تحت حاجبيه الكثيفين عندما واجهته بجمالها الرائع.

ظللنا نلعب حتى الساعة التاسع ثم تم الأتفاق على أن أعلن مقدماً بموعد قدوم استيلا إلى لندن لأقابلها عند هبوطها من العربة.. وبعد ذلك استأذنت في الأنصراف وعدت إلى الفندق.. وإلى ساعة متأخرة من الليل ظلت تدوي في أذني كلمات مس هافيشام «أحبها.. أحبها.. أحبها...!» ثم أخذت أعدها بما يتناسب مع تكراري لها ورحت أقول لوسادتي أنا أحبها.. أنا أحبها.. أنا أحبها!، مئات من المرات.. ثم تملكتني ثورة من الشكر لأنها غدت من نصيبي وقسمتي.. أنا الذي كنت ذات مرة صبي حداد! ثم تساءلت متى تسرع في الأهتمام بأمري ومتى أوقظ قلبها الذي كان نائماً إذ ذاك؟

تصورت تلك الأنفعالات سامية عظيمة ولكنني لم أتصور أي ضعة وصغار في تباعدي عن جو لأنني كنت أتوقع مبلغ أحتقارها له.. وبالأمس فقط جعلني جو أذرف الدموع ولكنها جفت بسرعة.. سامحني الله فقد جفت بسرعة!!.

الفصل السادس عشر

وفي الصباح التالي قلت لرائدي وكان يقيم معي في فندق "الخنزير الأزرق" إنني لا أرى أورليك الرجل اللائق بأن يعمل بمنزل مس هافيشام وريت له ما أعرفه عنه فقال:

– حسناً جداً يا بيب.. سأذهب إلى هناك في الحال وأدفع له مرتبه. ثم أتيح لي من الوقت منذ ذلك الحين ما يكفي لتحسين معلوماتي.

– أظنك أهلاً للتحسن دائماً يا بيدي مهما أختلفت الظروف.

وعندئذ روت لي تفاصيل وفاة أختي وكيف ظلت أربعة أيام تعاني إحدى نوبات المرض ثم أفاقت منها في المساء لتنطق بأسم "جو" في وضوح تام وما إن دعى جو من المصنع حتى أشارت بأنها تطلب أن يجلس إلى جوارها ثم وضعت رأسها على كتفه في رضا وانبساط تامين. وفجأة قالت "جو" مرة أخرى ثم "سامحني" كما نطقت مرة واحدة بأسم بيب ثم لم ترفع رأسها بعد ذلك وما لبثت أن ذهبت بعد ساعة أخرى.

– ألم تكتشفوا شيئاً يا بيدي؟

– لا شيء.

– أتعرفين ما جرى لأورليك؟

– أرى من لون ملابسه أنه يعمل في المحاجر.

ثم أخبرتني كيف لا يزال يتحبب إليها فغضبت غضباً شديداً. وفي

ساعة مبكرة من الصباح كان يجب أن أذهب فخرجت مبكراً أتطلع- غير مرئ- إلى إحدى نوافذ المصنع... وهناك ظللت واقفاً لبضع دقائق وأنا أرنو إلى جو وقد أنهمك في عمله وأرتسمت على وجهه إشراقة الصحة والعافية.

- وداعاً يا عزيزي جو! لا تدلك يديك بالله عليك.. بل أعطني يدك المسودة. سأعود إلى هنا مرة أخرى ومرات.

فقال جو:

- سوف تسعدنا دائماً زيارتك يا سيدي. سوف نتلهف على رؤيتك يا بيب.

الفصل السابع عشر

أنتقلت أنا وهربرت من سيء إلى أسوأ بتردينا في طريق الديون المتزايدة وفحص أعمالنا وترك الأحتياطي وما شابه ذلك. وتقضي الزمن وبلغت ببساطة إنك بدأت تعبدها عبادة لأول مرة رأيتها فيها.. عندما كنت شاباً يافعاً في الحقيقة.

قلت:

– حسناً جدً إذن.. إنني لم أكف عن التدله ولقد عادت أجمل وأرشق مخلوقة كما رأيتها بالأمس. وإذا كنت قد أحببتها جداً من قبل فإنني أحبها الآن حباً مضاعفاً.

– إذن من حسن حظك يا هنديل أنك أخترت لتكون من نصيبها. ولكن ألديك فكرة عن رأيها في الموضوع؟

هززت لاأسي وقلت كاسف البال:

– أوه.. إنها تبعد عني آلاف الأميال!

– صبراً يا عزيزتي هانديل فثمة متسع من الوقت.. متسع من الوقت.. ألذيك مزيد من القول؟

أجبت:

– يخجلني أن أفضي بما لدي ولكن ليس الإفضاء به أسوأ من التفكير فيه. إنك تدعوني «حسن الحظ» وأنا كذلك بالطبع فقد كنت صبي حداد

بالأمس فقط ولم أعمل شيئاً يرفعني في الحياة ولكن الحظ وحده هو الذي رفعني ومع ذلك فأنني عندما أفكر ف استيلا، لا يسعني أن أحدثك كيف أحس أنني عالة.. غير مستقر.. عرضة لمئات المصادفات! إن كل آمالي تتوقف على شخص واحد ويالها من آمال مبهمة غير محدودة!

أجابني هربرت!

ألم تقل لي أن رائدك مستر جاحرز– قد أخبرك في البداية أنك لم تمنح آمالاً فحسب. وحتى لو أنه لم يخبرك بذلك فهل تصدق أن مستر جاجرز من دون الرجال جميعاً في لندن يقبل أن يعمل رائداً لك ما لم تكن واثقاً مطمئناً إلى مركزه؟ قلت: إنني لا يسعني أن أنكر وجاهة هذه النقطة فقال:

– أظنها نقطةوجيهة، أما عن الأمور الباقية فيجب أن تتيح لرائدك الوقت الذي يجب عليه أن يمنحه بدوره لعميله.. وستبلغ الحادية والعشرين من عمرك قبل أن تدري ولعلك تتزود بعدها بمعلومات جديدة. أما الآن فأحب أن أضايقك لحظة بأن أقول لك أنني أميل إلى الظن بأن استيلا لا يمكن أن تكون شرطاً من شروط حصولك على الميراث طالما أن رائدك لم يجيء بذاكرها.. ألم يشر مثلا إلى أن لدي المحسن إليك رأياً فيما يختص بزواجك.

– كلا.. أبداً.

– والآن يا هنديل وأنت غير مخطوب لها ألا تقوي على الأبتعاد عنها؟

– لا حيلة لي يا هربرت.

- ألا تقوي على الأبتعاد عنها؟

- كلا مستحيل.

- حسناً سأعود ظريفاً كما كنت مرة أخرى.

ثم أخذ يروي له قصة أسرته وبخاصة ما يتعلق بشخصه وكيف خطب سيدة شابة تدعي كلارا.. كانت تقيم في لندن وكان والدها رجلاً عليلاً يلازم مخدعه على الدوام ويملؤه بالعجيج والضجيج. كما أخبرني هربرت بأنه بدا يكتسب ثم عقد العزم على التزوج من شابته ثم استطرد يقول:

- ولكنك كما تعلم لا تستطيع الزواج وأنت ما زلت تتلفت حواليك.. أي أنت عاجز عن الكسب.

الفصل الثامن عشر

وذات يوم.. تلقيت مذكرة بالبريد كان مجرد مظهرها الخارجي سبباً في رعدتي لأنني وإن لم أر الكتابة التي حررت بها قد خمنت كتابة من تكون.. وقد جاء بها ما يلي:

«أتفق على أن أجيء إلى لندن بعد غد في عربة الظهر. وأعتقد أنه تقرر أن تقابلني.. وعلى كل فهذا رأي مس هافيشام وأنا أكتب إليك منصاعة إلى أمرها. وهي تبلغك تحياتها.. المخلصة استيلا».

ولو كان هناك وقت لأمكنني أن آمر بأعداد حقائب عديدة للملابس من أجل هذه المناسبة ولكن لم يكن ثمة وقت فقنعت بما لدي منها.. وسرعان ما زايلتني شهوتي للطعام ولم يهدأ بالي حتى جاء ذلك اليوم.. بل لم يهدأ لي بال عندئذ لأنني أخذت أتردد على مكتب العربات قبل أن تغادر العربة فندق الخنزير الأزرق بمدينتنا وأخيراً وصلت وشاهدت وجه استيلا في تلك العربة وهي تلوح لي بيدها.

وبدت لي استيلا في ثوب السفر الموشي بالفراء أجمل مما كانته من قبل حتى في عيني! وكان سلوكها أشد جاذبية مما كان يهمها أن تبديه لي من قبل. وخيل إلي أنني ألمس تأثير مس هافيشام في ذلك التحول.

ثم وقفنا في فناء الفندق وهي تشير إلى أمتعتها فلما جمعناها تذكرت– وكنت قد نسيت كل شيء إذ ذاك إلا شخصها– تذكرت أنني لم أكن أعرف شيئاً عن المكان الذي تقصده! ولكنها قالت لي:

– سأذهب إلى رتشموند على مسافة عشرة أميال وسأستقل عربة إلى تأخذني إلى هناك. وها هو كيس نقودي لتدفع منه مصروفاتي. أوه.. يجب أن تأخذ الكيس فليس لك أو لي حق الأختيار وإنما نحن نطيع ما لدينا من تعليمات.

– تحتاج العربة إلى أن نرسل في طلبها يا استيلا فهل تستريحين هنا قليلاً؟

– نعم سأستريح هنا قليلاً وأحتسي بعض الشاي على أن تعنى بأمري في هذه الأثناء.

ثم سحبت ذراعها من ذراعي كما لو كان ذلك واجب التنفيذ فطلب إلى نادل "جرسون" أن يقودنا إلى حجرة جلوس خاصة بعد أن رأيته يحملق في العربة كرجل لم ير مثل هذا الشيء في حياته من قبل. وكان أن قادنا إلى غرفة بالطابق العلوي ثم طلبت لاستيلا شاياً وسألتها:

– إلى أين تذهبين في رتشموند؟

قالت:

– أنا ذاهبة لأعيش في بذخ مع سيدة هناك تدعى مسز براندلي ومخول لها أن تنتقل بي في مختلف الأماكن وتقدمني أي تربني الناس وتجعلهم يرونني.

– أظنك سوف تغتبطين بهذا التنويع وبهذا الإعجاب؟

– نعم أظن ذلك. أأنت سعيد مع مسيو بوكيت؟

– أعيش هناك عيشة راضية.. أو على الأقل العيشة الراضية الممكنة بعيداً عنك.

فقالت استيلا وهي غاية في الهدوء:

– يا لك من فتى أحمق! كيف تتحدث بمثل هذا الهراء؟ إن صديقك مستر ماتيون– على ما أعتقد– أسمى من سائر أفراد أسرته.

– أسمى جداً في الحقيقة.

– أهو في الواقع غير أناني ويترفع عن صغار الحقد والكراهية كما سمعت؟!

– يحق لي بكل تأكيد أن أقول هذا عنه.

– ولكن لا يحق لك أن تقول هذا عن بقية أفراد أسرته لأنهم حريصون على إرسال تقارير في غير صالحك لمس هافيشام! وإنه ليصعب عليك أن تدرك مبلغ الكراهية التي يستشعرها أولئك الناس نحوك.

– وهل أرجو أن لا يكون أذاهم قد لحق بي؟

وبدل أن تجيبني استيلا، انفجرت ضاحكة فقلت:

– وهل أطمح في أن أرى أنك لا تسرين إذا لحق بي أذاهم؟

قالت استيلا:

–كلا. كلا.. لك أن تثق بأنني ضحكت لفشلهم "في إيذائك".

أوه. يا لهؤلاء النا مع مس هافيشام! يل للعذاب الذي يلقونه منها!! ثم

ضحكت مرة أخرى ضحكاً بدا ملائماً للمناسبة. وأعتقدت أن لا بد هناك أكثر مما أعرفه وأسترسلت استيلا تقول:

– يمكن أن تهدأ بألا وأن تطمئن إلى أن هؤلاء الناس لن يتمكنوا ولو بعد مائة سنة من إضعاف مكانتك عند مس هافيشام.. هذا إلى أنني مدينة لك بأن كنت السبب في أنهم في شغل شاغل ووضيعين ضعة غير مجدية. وهأنذا أصافحك من أجل هذا.

ولما أعطتني يدها مازحة أمسكت بها ووضعتها على شفتي فقالت:

– أيها الفتى المضحك! ألا تأخذ حذرك قط أو أنك تقبل يدي بنفس الروح التي جعلتني أدعك مرة تقبل وجنتي؟

– أي روح كانت؟

– دعني أفكر لحظة.. كانت روح إزدراء للمتآمرين.

– أتدعينني أقبل وجنتك مرة أخرى لو قلت «نعم»؟

– كان يجدر أن تطلب هذا قبل أن تمس يدي ولكن.. نعم.. لو شئت. فأنحنيت ولكن وجهها كان ساكناً سمون التمثال ثم قالت وهي تنسل في اللحظة التي لمست فيها وجنتها:

– والآن يجب أن تلاحظ أنني سأشرب الشاي ثم تصحبني إلى رتشموند.

قدققت الجرس في طلب الشاي فلما جيء به واحتسته ودفعت الحساب؛ نهضنا إلى العربة فمضت بنا. ولما أخترقنا همر سميث أريت استيلا

أين يقيم مستر ماتيو بوكيت وقلت إن المسافة بين مسكنه وبين رتشموند ليست طويلة وإنني أرجو أن أراها بين الحين والآخر. فقالت:

– أوه.. نعم.. سوف تراني، كما يجب أن تأتي إلي كلما وجدت ذلك مناسباً فسوف أذكرك للعائلة. بل الواقع أنني ذكرتك لها فعلا.

وسرعان ما بلغنا رتشموند وكان مقصدنا فيها منزلاً قديماً محترماً. وما إن دققت جرسه حتى ظهرت عند بابه خادمتان جاءتا لأستقبال استلا، فمنحتني يدها وابتسامتها ثم تمنت لي ليلة طيبة وأختفت في الداخل. أما أنا فظللت واقفاً أتطلع إلى المنزل وأفكر في مبلغ سعادتي لو أنني عشت هناك معها وإن كنت أدرك أنني لم أسعد معها بحال وإنما كنت بائساً شقياً على الدوام.

الفصل التاسع عشر

كنت وأنا أشب معتاداً على آمالي، ألحظ مبلغ أثر هذه الآمال في نفس وفيمن يحيطون بي، فقد عشت في حالة من القلق المستمر بشأن سلوكي نحو جو. وكذلك لم يكن ضميري مستريحاً من ناحية بيدي، فكنت كلما صحوت من نومي في الليل أفكر بأعصاب مكدودة في أنني كان يمكن أن أحيا حياة أهنأ وأفضل لو أنني أر لم وجه مس هافيشام وأن أبلغ سن الرجولة قانعاً بأن أكون شريكاً لجو في مصنعه الأمين القديم.

ولم يكن تأثير مركزي الجديد ذا فائدة لهربرت لأن تبذيري دفعه إلى إنفاق مبالغ فوق طاقته وأفسد بساطة حياته وأقض سكينته بالشواغل والتحسرات.. وبدأت أغرق في الديون ثم تبعني هربرت.. وكنت أرحب بأن أضيف نفقات هربرت إلى جانبي ولكنه كان متكبراً فلم أقو على عرض مثل هذا الأقتراح عليه.

وكان يذهب إلى لندن في صبيحة كل يوم، وكنت أزوره غالباً في مكتبه ولكني لا أذكر أنني رأيته مرة يعمل شيئاً سوى أن يدور بعينيه فيما حوله. وكنت أحياناً أحدثه قائلاً:

– إن حالتنا المالية تسوء يا عزيزي هربرت.

فكان يجيبني قائلا:

– صدقني يا عزيزي هاندل إذل قلت لك إن هذه الكلمات نفسها

كانت على شفتي.

– إذن دعنا يا هربرت نفحص أمورنا.

وكنا دائماً نستمد الرضا البالغ من تحديد موعد لهذا الغرض، وفيه كنا نطلب صنفاً خاصاً لعشائنا بزجاجة نبيذ غالية كي نشحذ عقولنا للمناسبة حتى إذا أنتهى العشاء أخرجنا أقلاماً وورقاً ثم أخذت صفحة من الورق وكتبت في أعلاها بخط أنيق «مفكرة بديون هربرت» وعندئذ كان كل منا يفحص كومة مضطربة من الأوراق بجانبه كانت ملقاة في الأدراج من قبل أو أمتلأت في الجيوب بالثقب، أحترق نصفها في الشموع الموقدة أو ألتصقت أسابيع في المرآة.. وفي حالات أخرى كانت أوراقاً بالية. وكان صرير أقلامنا ينعشنا جداً بحيث كان يصعب علي أحياناً أن أميز بين هذه العملية وبين دفع النقود بالفعل.. حتى إذا كتبنا قليلاً سألت هربرت عما وصل إليه فكان يقول:

– أقسم أنها تتصاعد يا هانديل. أقسم أنها في تصاعد يا هانديل!

وكنت أجيبه:

– أثبت يا هربرت: واجه الأمر الواقع. أدرس شئونك جيداً. وكان للهجتي الحازمة تأثيرها فيكب هربرت على العمل من جديد... ثم لا يلبث بعد قليل أن يتخلى عنه مرة أخرى ليتعذر بفقد فواتير بعض الدائنين. قلت له:

إذن.. أحسب يا هربرت. إحسب المبلغ بأرقام مستديرة "أي عشرات بلا آحاد" ثم قيدها.

فأجاب صديقي معجباً بي:

– يالك من نبيه!! الحق أن قدرتك على تصريف الأعمال رائعة. كنت أعتقد ذلك أيضاً إذ كنت أعتبر نفسي في هذه المناسبات رجل أعمال من الطراز الأول، ثابتاً حازماً رابض الجأش.. وكان من عادتي في العمل ما سميته "ترك أحتياطي" فمثلاً إذا فرضنا أن ديون هربرت بلغت مائة وأربعة وستين جنيهاً وأربعة شلنات وبنسين، كنت أقول له «أترك مبلغاً أحتياطياً فوق ما هو ضروري وقيد المبلغ ائتي جينة، وإذا فرض أن ديوني بلغت أربعة أمثال ديونه تركت مبلغاً احتياطياً وقيدت الديون سبعمائة جنية!! وكنت أبالغ في تقدير حكمة هذا الأحتياطي ولكن يجب علي أن أعترف بأنه كان فكرة باهظة التكاليف لأننا كنا ننغمس دائماً وفي الحال في ديون جديدة تستنفد الأحتياطي بل وتمتد في بعض الأحيان أمتداداً كبيراً إلى احتياطي آخر.

ولكن كانت نتيجة هذه الدراسات الشئوننا هادئة مريحة تعطيني رأياً رائعاً في نفس طوال تلك المدة.. وقد عشيني هذا الشعور بالراحة ذات مساء عندما جاء خطاب من بيدي.. تخبرني فيه بوفاة أختي وتطلب إلي أن أحضر جنازتها في الأثنين التالي. وقلما كنت أذكر أختي بكثير من الحب ولكني أحسب أن ثمة صدمة من الأسى لا يخالطها الكثير من الحب. وقد تملكني الغضب الشديد تحت تأثير هذه الصدمة من المعتدي الذي جعلها تقاسي الأرين وأحسسست بأنني لو توافر لدي الدليل الكافي لطاردت برغبة الأنتقام أورليك أو أس إنسان آخر إلى النهاية.

كتبت لجو أعزيه.. حتى إذاجاء اليوم.. أستقللت عربة إلى قريتي ثم مضيت إلى دكان الحدادة. ولما أنتهت الجنازة، تناولت العشاء مع جو وبيدي.. وكان جو غاية في الأغتباط وهو يسألني هل سأنام في حجرتي الصغيرة الخاصة.. ولما أطبق الظلام، أنتهزت الفرصة للتنزه قليلاً في الحديقة مع بيدي وهناك قلت لها:

– أظن من الصعب عليك أن تقيمي هنا الآن يا عزيزتي بيدي؟

فقالت برنة الأسى:

– أوه نعم.. لا أستطيع ذلك يا مستر بيب.. لقد كنت أتحدث منذ قليل إلى مسز هابل في هذا الشأن وسأذهب إليها غداً.. وأرجو أن نتمكن معاً من توفير بعض العناية لمستر جارجري إلى أن يسترد جأشه.

– وكيف تعيشين يا بيدي بعد ذلك إذا أحتجت إلى نقود...؟

– كيف أعيش؟ سأقول لك يا مستر بيب: سأحاول الظفر بوظيفة معلمة في المدرسة الجديدة التي كاد يتم إنشاؤها هنا فقد تعلمت كثيراً منك يا مستر بيب.

وعند عودتي إلا فندق برنار، وجدت هربرت يتعشى لحماً بارداً فرحت بعودتي. وبعد أن أرسل الصبي الخادم إلى المقهي في طلب مزيد للعشاء، شعرت بضرورة الإفضاء لصديقي بما يعتمل في صدري في نفس ذلك المساء.. فقلت:

– لدي يا عزيزي هربرت شيء هام أريد أخبرك به.

فأجابني:

– يا عزيزي هانديل "فهكذا كان يحب أن يدعوني" سوف أقدر وأحترم ثقتك هذه بس.

قلت:

– الأمر يخصني وشخصاً آخر.

فوضع هربرت قدما على الأخرى ثم تطلع إلى النيران وقد أمال رأسه جانباً وراح يرنوا إليها عيثاً بعض الوقت ثم ألتفت إلي لأنني لم أسترسل في حديثي فقلت وأنا أضع يدي على ركبته:

– يا هربرت! أنا أحب.. بل أعبد استيلا.

فأجاب هربرت كمن كان يتوقع ذلك مني.

– تماماً.. ماذا؟

– ماذا يا هربرت! أهذا كل ما يمكن أنتقوله؟ ماذا؟

– أعني ماذا بعد ذلك! أنا بالطبع أعرف ما قلته لي.

قلت:

– وكيف تعرفه؟

– كيف أعرفه يا هنديل؟ منك.

– أنا لم أقل لك شيئاً قط..

– لم تقل لي!! إنك لا تخبرني طبعاً عندما تقص شعرك ولكن لي حواساً

الحظ بها ذلك.. إنك تعبدها دائماً منذ أن عرفتك.. بل إنك إنما جئت إلى هنا بعبادتك لها وحقيبة ملابسك معا!! أبعد هذا تقول «لم أقل لك» وأنت تخبرني بذلك طول اليوم!! إنك عندما أخبرتني بقصتك قلت لي سن الرشد. وفي اليوم السابق لميلادي الواحد والعشرين تلقيت كتاباً رسمياً من ويميك يخبرني فيه أن مستر جاجرز يسره أن أزوره في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم التالي.

ولما وصلت إلى المكتب قدم لي ويميك تهانئه ثم أشار لي بإيماءة من رأسه أن أدخل حجرة رائدي. وهناك صافحني كستر جاجرز وهنأني ثم سألني عن معدل نفقاتي المعيشة ولكني لم أستطع الجواب عن ذلك السؤال وإنما سألته هل سيكشف في ذلك اليوم عن إسم المحسن إلى.. فأجاب بالنفي ثم قال إنه يعلم أنني عارق في الديون وأعطاني شيكاً بمبلغ خمسمائة جنية وأضاف أنني سأتلقى مثل هذا المبلغ في كل سنة ويجب أن أعيش بذلك المعدل إلى أن يظهر المحسن إلي.. وبدأت أعبر له عن أعترافي بجميل هذا المحسن إلي وكرمه العظسم الذي يعاملني به ولكنه قاطعني قائلاً في برود:

– أنا لا أتناول أجري يا بيب لأحمل كلماتك لأي إنسان!!

وبذلت جهوداً متكررة لأعرف متى سيكشف لي عن إسم المحسن إلي وهل هو– أو هي– سيأتي إلى لندن ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح.. وكل ما أمكنني أن أحمل مستر جاجرز على قوله هو:

– عندما يكشف لك هذا الشخص عن نفسه ستنتهي مهمتي.

فأستنتجت من ذلك إما أن مس هافيشام لسبب ما لم تخبره بخطتها معي بشأن استيلا فهو مستاء لذلك وتساوره الغيرة، وإما أنه يعارض هذه الخطة ويأبي أن يتدخل فيها..

ثم غادرته وذهبت إلى مكتب ويميك.. ولما أستقرت الخمسمائة جنية في جيبي، خطرت لي فكرة وأردت أن أسأل ويميك نصيحته.. فأخبرته إنني أريد معاونة صديق يعمل بالتجارة ولا يملك مالاً. فكان رأي مستر ويميك أن الإقدام على ذلك حماقة تتساوى مع حماقة إلقاء النقود في نهر التاميز..

بيد أن ويميك كان في منزله أكثر محبه للخير منه في مكتبه. ولذلك ترددت عليه عدة مرات في منزله. وأخيراً عثرنا على تاجر شاب لا تعوزه المقدرة العقلية، بل ينقصه رأس المال ثم يحتاج مع الزمن إلى شريك. فوقعت فيما بيني وبينه على أتفاق سري "هدفه هربرت"، ثم دفعت له نصف الخمسمائة جنية ووعدته بدفعات أخرى من دخلي في مواعيد خاصة.

ودبر العمل كله بمهارة بحيث لم يتطرق الشك إلى هربرت في أن لي يداً فيه.. ولن أنسى ما حييت ذلك الوجه المشرق الذي عاد به إلى المنزل عصر أحد الأيام ليخبرني– كما لو جاء بخبر ضخم– بأنه صادف شاباً تاجراً أظهر نحوه ميلا غير عادي وبأنه يؤمن أن الفرج قد جاء أخيراً، وقويت آماله وزاد وجهه إشراقاً إلى أن تم الأمر في النهاية وأنخرط في العمل. وصحت مبتهجاً عندما أويت إلى الفراش أفكر في أن آمالي قد عادت بالخير على إنسان.

الفصل العشرون

إن قدر لهذا البيت الوقور القدي في رتشموند أن تغشاه الأرواح عندما أموت، فلا شك في أن روحي هي التي ستغشاه، فكم من ليال كثيرة جداً وكم من أيام غشيت فيها روحي القلقة ذلك البيت عندما كانت استيلا تقيم فيه!! وفي داخل هذا البيت وخارجه؛ عانيت كل أنواع العذاب التي أستطاعت استيلا أن تبلوني بها ولقد سلبتني رشدي طبيعة العلاقات معها إذ جعلتها تعاملني كشخص أعتادته لا كشخص يستحق أن يعامل بمحبة خاصة، فأستخدمتني لتعاكس بي المعجبين الآخرين الذين لا عدد لهم، وكثيراً ما رأيتها في رتشموند وسمعت في المدينة بأخبارها وكثيراً كذلك ما أعتدت أن أدعوها وآل براندلي– الذين تقيم معهم– إلى رحلات قصيرة للنزهة في الخلاء وإلى ولائم وغيرها من أنواع المباهج، حيث كنت ألازمها ملازمة الظل، فلا ألقى سوى البؤس والشقاء في كل هذه الدعوات. ولم أنعم بساعة واحدة بالسعادة برفقتها ومع ذلك كان عقلي طوال الأربع والعشرين ساعة لا ينفك يفكر في سعادتي بالظفر بها إلى جانبي حتى الموت.

وذات مساء أخبرتني أن مس هافيشام ترغب في عودتها يوم بمنزل ساتيس على أن أرافقها إلى هناك ثم أعود بها لو شئت، فرحبت بذلك ومضينا معاً في اليوم التالي لنجد مس هافيشام بالحجرة التي رأيتها فيها أول مرة.. لقد زاد شغفها الطاغر باستيلا في هذه المرة، عما كان عندما رأتنا

معاً في المرة الأخيرة، إذ كانت تنظر بلهفة إلى جمالها وتترقب كلماتها وحركاتها وترنوا إليها كما لو كانت تلتهم المخلوقة الحسناء التي ربتها!!

ومن استيلا نقلت بصرها إلي بنظرة فاحصة ثم عادت تسألني بلهفة على مسمع من ستيلا:

-كيف تعاملك في الحقيقة يا بيب. كيف تعاملك؟

ولكن لما جلسنا في الليل بجوار موقدها، بدت غاية في الغرابة إذ ظلت ممسكة في يدها يد استيلا من خلال ذراعها وطلبت إليها أن تذكر أسماء وأحوال من خلبت لهم من الرجال. وكانت مس هافيشام وهي تركز انتباهها في هذه القائمة قد جلست ويدها الأخرى على عصاها وجعلت تحملق في غاضبة كالشيخ ورأيت في ذلك أن استيلا أستخدمت لتنتقم لمس هافيشام من الرجال، ورأيت في هذا سبب إقصائي ورفض رائدي أن يعترف بأنه يعلم بتحفظها معي. وحدث في تلك الزيارة أن تبودلت بعض الكلمات الغاضبة بين استيلا ومش هافيشام فكانت أول مرة أراهما تختلفان وتتعارضان. وكنا جلوساً بجانب النار ومازالت مس هافيشام، تتأبط ذراع استيلا عندما أخذت استيلا تتحرر تدريجاً. فصاحت بها مش هافيشام بنظرات غاضبة:

– ماذا! هل سئمتي؟

فأجابتها استيلا وهي تخلى ذراعها وتتحرك نحو الموقد حيث وقفت تتطلع إلى النيران.

– بل سئمت نفسي هونا ما.

فصاحت مس هافيشام وهي تضرب الأرض بعصاتها في أنفعال:

– قولي الحقيقة أيتها الناكرة للجميل: لقد سئمتي.

فرنت إليها استيلا بهدوء تام ثم عادت تتطلع إلى النيران فصرخت مس هافيشام:

– أنت أيتها الجماد.. العديمة الإحساس! أنت أيتها الباردة.. ذات القلب البارد!

فقالت لها استيلا:

– ماذا! أتلوممنني لأنني باردة؟ أنت؟

كان الرد القاسي: ألست كذلك؟

– يجب أن تعلمي أنني كما صنعتني.. فخذي كل ما أغدقت علي من مديح.. خذي كل ما أنحيت علي من لوم.ز خذي ما أنعمت علي به من نجاح خذ كل ما منيت به من فشل.. وقصارى القول خذوني.

فصاحت مس هافيشام بمرارة:

– أوه. أنظر إليها! أنظر إليها هذه الجافة الجامدة الواقفة عند المدفأة حيث نشأت وربيت! حيث أخذتها إلى صدري المنكود عندما كان يدمي من طعناته في أول مرة وحيث أغدقت عليها الحنان سنوات في تبذير وإسراف.

فقالت استيلا:

– فيم ترغبين؟ لقد أحسنت كثيراً إلي وأنا مدينة لك بكل شيء ففيم ترغبين؟

– الحب؟

– إنك تنعمين به. – كلا.

يا أمي في التبني! قلت إنني مدينة لك بكل شيء ولك كل ما أمتلك طواعية وعن طيب خاطر، وكل ما أعطيتنيه يعود إليك إذا أمرت فلا يبقى لي شيء بعد ذلك. أما إذا سألتني أن أعطيك ما لم تمنحيني فإن عرفاني بالجميل وواجبي لا يقويان على عمل المستحيل.

فأستدارت مس هافيشام إلى بوحشية وصاحت:

– ألم أمنحها الحب قط! ألم أعطها حباً مضطر ما بينما تتكلم هكذا إلي دعها تسمني مجنونة..دعها تسمني مجنونة!

فأجابتها استيلا:

– لما يتحتم أن أدعوك مجنونة.. أنا.. من دون الناس جميعا؟ من من الأحياء يعرف عن أغراضك نصف ما أعرف أنا. من من الأحياء يعرف عن ذاكرتك التي لا تتزعزع نصف ما أعرف؟ أنا التي وقفت بجانب هذا الموقد أذاكر دروسك وأتطلع إلى وجهك عندما كان عجيباً يخيفني؟!

فقالت مس هافيشام في أنين:

– أنسيت سريعاً؟ أنسيت سريعاً تلك الأوقات.

– كلا لم أنسها.. لم أنسها وإنما أختزنها في ذاكرتي وإلا فمتى وجدتني

غير مخلصة لتعليمك؟ ومتى وجدتني أسمح بالدخول إلى هنا..

ثم مسحت بيدها على صدرها وأسترسلت تقول:

– لواحد ممن أقصيتهم؟ كوني عادلة معي!

فعادت مس هافيشام تئن قائلة:

– يالك من متكبرة.. متعجرفة!

ولكن استيلا أجابتها:

– من علمني أن أكون متعجرفة؟ من الذي كان يمتدحني كلما حفظت درسي في الكبرياء؟

– يالك من صلبة لا تلين لك قناة!

– من الذي علمني أن أكون جامدة؟ من الذي كا يمتدحني كلما حفظت دروسي في الجمود؟

فصرخت مس هافيشام عاليا وهي تمد ذراعيها وتقول:

– ولكن هل علمتك أن تكوني متعجرفة جامدة معي؟ أعلمتك يا استيلا أن تكوني متعجرفة معي؟!

فرنت إليها استيلا في عجب هاديء ثم عادت ترنو إلى النيران مرة أخرى وسرعان ما هوت مس هافيشام على الأرض دون أن أفطن كيف حدث لك ولكني أنتهزت الفرصة لمغادرة الحجرة ثم سرت تحت ضياء النجم أكثر من ساعة في الحديقة المخربة وأخيراً.. عندما تشجعت على

العودة إلى الحجرة ألفيت استيلا جالسة عند ركبة مس هافيشام. وبعد ذلك لعبت الورق مع استيلا كما كنا نفعل قديماً وهكذا تقضي المساء وأويت إلى فراشي.

***

يستحيل أن أطوي هذه الصفحة من حياتي دون أن أسجل عليها أسم بنتلي درامل أو أن أرحب بذلك غاية الترحيب، فقد حدث في مناسبة ما عندما كنت وهربرت وبعض الأصدقاء مجتمعين في نادينا أن خيل إلي أن بنتلي بتطلع ساخراً وبصورة دميمةثم فجأة طلب إلى الجماعة الحاضرين أن يشربوا نخب استيلا فقلت:

– أستيلا من؟

وكان رده:

– ليس هذا شأنك.

فعدت أقول: أين تقيم استيلا هذه؟

فأجاب:

– استيلا رتشموند يا سادة.. ذات الجمال الفريد.

ولما شربوا نخبها قال هربرت وهو جالس إلى المائدة:

– أنا أعرف هذه السيدة.

فسأله درامل: صحيح؟

وإذ ذاك أضفت وقد تورد وجهي:

– وكذلك أعرفها أنا.

فعاد درامل يقول:

– صحيح؟ أوه. يا إلهي!

فغشيني الغضب لهذه الوقاحة ودعوته سليطاً لجرأته على طلب الشرب في نخب سيدة لا يعرف عنها شيئاً ثم أوضحت له أستعدادي لمنازلته في مبارزة ولكن الجماعة قررت– إذا ما جاء مستر درامل بشهادة من السيدة بأنه يحظى بشرف معرفتها– أن ألزم بابداء أسفي كسيد "جنتلمان" على أنفعالي.

وفي اليوم التلي، ظهر درامل بأعتراف مقتضب بخط استيلا تقرر فيه أنها تشرفت بمراقصته عدة مرات وبذلك لم يبق أمامي من سبيل سوى أن أعتذر.

وإنني لعاجز عن وصف مدى الألم الذي سببه لي التفكير في أن تظهر استيلا ملاطفة لمثل هذا الشخص الحقير السمج، ولذلك أنتهزت أو فرصة تقابلت فيها مع استيلا في حفلة راقصة برتشموند لأحدثها في هذا الشأن. وكان دراميل موجوداً هناك فقلت لها:

– أرجو أن تنظري يا استيلا إلى ذلك الشخص الذي في الركن فهو يتطلع إلينا.

فكان جوابها:

– لماذا يجب أن أنظر إليه؟ ماذا فيه يضطرني إلى النظر إليه؟

قلت:

– هذا في الحقيقة هو نفس السؤال الذي أريد أن أطرح عليك لأن الرجل كان يحوم حولك طول الليل.

فرمقته بنظرها ثم قالت:

– إن العثة وسائر أنواع المخلوقات الدميمة تحوم حول الشمعة المضيئة فهل في وسع الشمعة أن تعمل شيئاً لتمنعها؟

– كلا ولكن يشقسني يا استيلا أن تشجعي رجلاً كدراميل أجمع الناس على إزدرائه، ولقد رأيتك تمنحينه نظراتك وأبتساماتك في هذه الليلة بالذات أكثر مما منحتينيه من قبل.

– وهل تريدني إذن على أن أخادعك وأوقعك في حبائلي؟

– وهل أنت تخادعينه وتوقعينه في حبائلك يا استيلا؟

– نعم وكثيرين غيره.. لهم جميعاً ما عداك.. ها هي مسز براندلي أقبلت ولن أقول أكثر من هذا.

الفصل الحادي والعشرون

بلغت الثالثة والهشرين من عمري وكنا قد غادرنا فندق برنارد منذ أكثر من سنة لنقيم في "التمبل" بمسكن في "جاردت كورت" بالقرب من النهر.. وكان هربرت قد سافر إلى مرسيليا في بعض الأعمال فبقيت وحيداً أتفقد الوجه الصبيح ورفقة صديقي، ولذلك جلست أطالع حتى الحادية عشرة وعندما أقفلت الكتاب سمعت وقع أقدام على الدرج فتناولت مصباح القراءة وخرجت إلى رأس الدرج أتطلع منه إلى تحت وأصيح:

– أن شخصاً تحت.. أليس كذلك؟

فأجابني صوت وسط الظلمة أسفلي: أجل.

– أي دور تريد؟

– الدور العلوي.. مستر بيب.

– هذا أسمي.

فصعد الرجل ورأيت في ضوء المصباح وجهاً غريباً علي يتطلع عالياً نحوي وقد ظهرت عليه آيات التأثر البالغ والأغتباط لرؤيتي. ولما حركت المصباح تبعاً لنحرك الرجل تبينت أنه ما يشبه ملابس مسافر بالبحر، وأن شعره طويل أشيب، وسنه تقرب من الستين، وأنه رجل مفتول العضلات أسمر لونه وجمد عوده لطول تعرضه للطقس. وفيما كان يرقي "الدرجة" الأخيرة، رأيته يمد نحوي يديه فسألته:

فردد يقول وقد توقف عن الصعود:

– عملي؟ آه.. نعم.. سأوضح لك عملي.. لو سمحت.

– أتريد الدخول؟

– نعم أريد الدخول.

فقدته إلى الحجرة التي كنت قد غادرتها من فوري ثم سألته أن يقدم لي نفسه فتلفت حواليه بسرور عاجب كأن له يداً في الأشياء التي أعجبته، ثم خلع معطفه وقبعته ليمد نحوي يديه مرة أخرى فقلت له وقد ساورني بعض الشك في جنونه:

– ماذا تعني؟

فجلس على مقعد خلف الموقد ثم غطى جبينه بيديه الضخمتين السمراوين وبعد قليل تطلع من فوق كتفه وقال:

– لا أحد بالقرب منا.. أليس كذلك؟

قلت:

– لماذا تسأل هذا السؤال وأنت غريب يأتي إلى مسكني في هذا الوقت من الليل؟

فأوما برأسه إلي في حب وهو يقول:

– أنت شاب شجاع ويسرني أنك ترعرعت وأصبحت شاباً شجاعاً! ولكن لا تقبض علي وإلا أسفت على فعلتك فيما بعد.

فتخليت عن العزم الذي أستشفه وتبينه لأني عرفت الرجل.. عرفت الرجل المحكوم عليه بالسجن ولم تكن به حاجة إلى أن يخرج من جيبه مبرداً ليرينيه أو أن يخلع متديله عن عنقه فيعقصؤده حول رأسه لأنني تعرفت عليه جيداً حتى قبل أن يطعيني هذه المعاونات.. ثم أرتد إلى حيث وقفت، ومرة أخرى مد نحوي يديه ووجدتني "دون أن أعرف ما أعمله" أسلمه يدي في زهد وعزوف فيتشبث بهما بدوافع من قلبه ويرفعهما إلى شفتيه ليقبلهما ثم ظل يمسكها وهو يقول:

– لقد تصرفت تصرفاً نبيلاً يا بيب.. ولدى بيب النبيل! ولم أنس ذلك قط.

وهم بأن يعانقني ولكنني دفعته بعيداً وقلت:

– أبق بعيداً وإذا كنت شاكراً لي ما فعلته وأنا طفل فأنني أرجو أن تدلل على شكرك بأصلاح طريقك في الحياة. أنت مبتل بادي التعب فهل تشرب شيئاً قبل ذهابك؟

ولما رد بالإيجاب أعددت له بعض الروم الحار مخففا بالماء، وفيما كنت أقدمه له، رأيت مشدوها أن عينيه مليئتان بالدموع مما رقق شعوري فبادرت أصب شراباً لنفسي وقلت له:

– يؤسفني أن حدثتك الآن بجفوة وغلظة وأرجو أن تكون بخير وسعادة، كيف تعيش الآن؟

– لقد عملت مزارعاً وراعي غنم، ثم مربي ماشية، ومهناً أخرى إضافية.. بعيداً.. في الدنيا الجديدة أي أستراليا.

– أرجو أن تكون قد وفقت؟

– توفيقاً رائعاً.

– يسرني أن أسمع ذلك.

– هل أجرؤ فاسألك كيف وفقت أنت منذ تقابلنا في المستنقعات؟

أذخت أرتجف وأكرهت نفسي على القول بأنني وقع علي الاختيار لأرث بعض المتاع.

– أتسمح لي أن أسألك: متاع من؟

قلت متعلثماً: لا أدري.

فقال:

– أتسمح لي بالتخمين والتساؤل عن ذخلك منذ بلغت الرشد؟ إن أول رقم منه.. خمسة؟ أما فيما يختص برائدك فلعله محام.. أما عن أول حرف من إسم ذلك المحامي فهو.. ترى هل هو "ج".. لعله جاجرز.

ولدهشتي أخبرني بعد ذلك أنه هو.. المحسن إلي.. الذي قد بحراً إلي برر تسماوث وحصل من ويميك على عنواني وأنه الذي جعل مني جنتلماناً..وعاش على الشظف لأعيش في رخاء.. ويجد في عمله ليسمو بي على العمل!! ثم جثا أمامي ودعاني ابنه وروى كيف عمل راعياً أجيراً وأقسم أن يكون من نصيبي كل جنيه يحصل عليه ثم مات سيده تاركاً له بعض المال فأسترد حريته وأشتغل لحسابه الخاص وأصابه التوفيق فخلق مني سيداً "جنتلماناً" ثم وضع يده على كتفي فأرتعدت للتفكير في أن

يده- كما أعلم- قد تكون مخضبة بالدماء.. وفجأة سألني:

- أين ستودعني؟ يجب أن أودع في مكان ما يا ولدي العزيز.

قلت: لكي تنام؟

فأجاب:

- نعم ولأستغرق في نوم طويل لأنني قضيت شهوراً وشهوراً تؤرجحني البحار وتغرقني أمواجها.

- إن صديقي ورفيقي غائب فيجب أن تأخذ حجرته.

- لن يعود غداً.. أليس كذلك؟

- كلا.. ليس غداً.

- لأن الحذر لازم يا ولدي العزيز.

- ماذا تعني؟ الحذر؟

- من الموت. فقد حكم علي بالنفي مدى الحياة.. والرجوع معناه الموت.

لذلك كان أول همي أن أغلق المصاريع حتى لا يرى أي ضوء من الخارج ثم أغلقت الأبواب وأحكمت رتاجها. وبعد ذلك أعرته بعض بياضاتي فأوى إلى فراشه.. ثم جلست إلى الموقد خائفاً من الذهاب إلى فراشي.. وظللت أكثر من ساعة يمنعني الذهول من التفكير.. حتى إذا بدأت أفكر تبين لي تماماً أي إنسان شقى كنته وكيف تحطمت سفينة

الآمال التي طالما أبحرت فيها، فقد غدت نيات مس هافيشام نحوي مجرد حلم من الأحلام ولم تهيأ أيزابلا لتكون من نصيبي "كما كنت أتوهم" بل كان يسمح لي بالدخول إلى سايتس هاوس لأثارة العلاقات الشرهة! تلك كانت بداية آلامي ولكنها كانت انكاها وأعمقها جميعاً إذ أنن من أجل المجرم الذي لا أعرف أي جرائم أرتكبها والمتحمل أن حكم عليه بالشنق قد هجرت جو وبيدي.

الفصل الثاني والعشرون

بت ليلة نعسان أمام الموقد ثم أستيقظت في الساعة السادسة لأنعس مرة أخرى، ثم أستغرق في نوم أيقظني منه ضياء النهار مفزوعاً فأغتسلت فأرتديت ملابسي ثم جلست بجوار النار أنتظر مقدمة للأفطار.. وفجأة فتح بابه وخرج منه وأنا لا أقوى على أحتمال منظره إذ وجدت منظره يزداد دمامة في ضوء النهار.

أخبرني أنه أتخذ لنفسه على ظهر السفينة أسم بروفيس ولكنه اسمه الحقيقي آبل ماجويتش. وبعد الإفطار الذي تناوله في شراهة أخذ يدخن غليونه ثم أخرج من جيبه مفكرة ضخمة سميكة تكاد تنفجر من الأوراق التي بها ثم طوح بها على المائدة وقال:

– إن ثمة شيئاً في هذا الكتاب يستحق الأنفاق يا ولدي العزيز.. إنه لك وكل مالي ملك لك.

قلت:

– أريد أن أحدثك. أريد أن أعرف ما سنعمله. أريد أن أعرف كيف فنأي بك عن الخطر.

– حسناً يا ولدي العزيز.. ليس الخطر جسيماً ما لم يبلغ إنساناً ما.

– وكم من الزمن ستبقى؟

– كم من الزمن؟ أنا لن أعود فقد جئت لأقيم هنا إلى الأبد.

– وأين تعيش؟ وما العمل بك؟ وأين تكفل لك السلامة؟

أجاب:

– إن هناك شعراً مستعاراً للتنكر ومساحيق للشعر ونظارات وملابس سوداء وغير ذلك.. أما أين وكيف أعيش فما رأيك أن في ذلك؟

بدا لي أن ليس في وسعي خير من أن أعثر له على مسكن هادىء قريب مني يأوى إليه عندما يعود هربرت الذي كنت أتوقع رجوعه بعد يومين أو ثلاثة.. وكان جلياً في عيني وجوب الإفضاء لهربرت بذلك السر.

أغريت بروفيس بأتخاذ ملابس مزارع موفق ناجح وأتفقنا على أن يقص شعره قصيراً ويكسوه بقليل من المساحيق وأن يتحاشى أنظار خدمي إلى أن يتم تغيير ملابسه. ولحسن حظي ضمنت له الطابق الثاني من مسكن محترم قريب ثم مضيت من حانوت إلى آخر أشترى له الملابس اللازمة... وفي اليوم التالي أرتداها وإن كان كل ما لبسه لم يكن مهندماً عليه أكثر مما كان يرتديه من قبل أرتداها وإن كان كل ما لبسه لم يكن مهندماً عليه أكثر مما كان يرتديه من قبل وأظن أن شيئاً به كان يبدد الأمل في محاولة إخفائه والتستر عليه إذ كان يجر إحدى ساقيه كما لو كانت لا تزال ترزح تحت قيد حديدي!! هذا إلى أن حياته السابقة المنفردة في الكوخ خلعت عليه مظهراً وحشياً لا يقوى أي رداء على ترويضه!! كما كانت طرائقه في الجلوس والوقوف والأكل والشرب طرائق سجين محكوم عليه بالأشغال بوضوح ما بعده من وضوح.

وكنت أترقب هربرت طوال الوقت دون أن أجرؤ على الخروج إلا عند

ما أصطحب بروفيس لنزهة قصيرة في الهواء الطلق. وأخيراً.. سمعت ذات ليلة وقع قدمي هربرت على الدرج.. ذلك الوقع الذي كنت أرحب به. ثم أندفع إلى الداخل نشيطاً بعد رحلته في فرنسا ليقول:

– هانديل.. صديقي العزيز.. كيف حالك، ومرة أخرة كيف حالك! يخيل لي أنني غبت عاماً كاملاً!

– لابد أن الأمر كذلك لأنك قد نحلت وشحبت كثيراً. هانديل. هالو.. عفواً.

قلت وأنا أغلق الباب:

– هربرت.. يا صديقي العزيز! إن شيئاً غايه في الغرابة قد وقع. هذا أحد زواري.

وتقدم بروفيس وهو يخرج من جيبه أنجيلاً صغيراً أسود يعلوه الوهن ثم قال:

– الأمر على ما يرام يا ولدي العزيز.. خذ هذا بيمينك والله يصرعك على التولو أنك خنتني يوماً ما.. قبله.

فقلت لهربرت:

– أفعل كما يريد.

فتطلع هربرت إلي بقلق ودهش الصديق ثم أمتثل وبعد ذلك جلسنا جميعاً بجانب الموقد وقصتت السر بأكمله.. وطالت جلستنا إلى ساعة متأخرة فقد أنتصف الليل قبل أن أصطحب بروفيس إلى مسكنه وأوصل

إليه سالماً. ولما أغلق عليه الباب أحسست بأول ما عرفته من لحظات الراحة والخلاص منذ ليلة وصوله.وإذ عدت إلى شقتي جلست مع هربرت نتدبر الأمر وما يجب أن نعمله؟ قلت:

– يجب أن نعمل شيئاً يا هربرت فهو أعتزم نفقات جديدة متباينة لشراء جياد وعربات وأشياء أخرى غالية التكاليف ويجدر أن نمنعه بوسيلة ما.

– أتعني أنك لا تستطيع أن تقبل..

فقاطعته عندما توقف عن الحديث:

– كيف أستطيع؟ فكر فيه! أنظر إليه! فكر أي حياة كان يحياها! فغشيتنا نحن الأثنين رعدة ثم أسترسلت أقول:

– ومع ذلك فإن الحقيقة المروعة التي أخشاها هي أنه يحبني. يحبني بشدة فهل لقى أحد مثل هذا المصير الذي ألقاه؟! والآن فكر فيما أدين به إليه في التو واللحظة... وفي أنني غارق في الديون التي تثقل كاهلي... أنا الذي غدوت بلا آمال ولم أعد لأحتراف مهنة ما ولا أصلح لشيء اللهم إلا أن أكون جنديا!!

فأجابني هربرت:

– الجندية لا تجدي إذ لن تقوى بها على إيفاء ما تدين به للرجل.. هذا إلى أن للفكرة سخيفة، وإنما الأفضل كثيراً، لك منزل كلاريكر رغم صغره وأنا لا أعمل لأكون شريكاً في عمله كما تعلم.

يا له من مسكين! لا يكاد تساوره السك فيما يكون صاحب المال. في هذه الشركة!

وأستطرد هربرت يقول:

– ولكن أول وأهم ما يجب أن نعمله أن نخرجه من أنجلترا.. يجب أن تذهب معه ليتسنى إغراؤه بالذهاب.

وفي اليوم التالي.. جاء للإفطار فطلبت غليه أن محدثنا عن نفسه وعن المحكوم عليه الآخر الذي تشاجر معه في المستنقعات. وبعد أن ذكر هربرت بأنه مرتبط بقسمه أن يصون السر رضى أن يحكي لنا..

وفيما يلي موجز لما حدثنا به:

– ليس لدي فكرة عن مكان مولدي أكثر مما لديكما.. ولكن أول ما أذكره عن نفسي أنني كنت في جنوب "إيستكس" أسرق اللفت لأعيش. وما منن أحد رآني جائعاً مهلهل الثياب إلا طردني أو أزدراني. وكثيراً جداً ما زججت في السجون حتى أعتدها، بل لقد قضيت حياتي تقريباً في السجون مشرداً.. متسولاً.. سارقاً.. مشتغلاً في بعض الأحيان إذا أستطعت.. وساطياً على الطيور والحيوانات الأليفة في بعض الأحيان.. عاملاً في أحيان أخرى.. أو بائعاً متجولاً.. أو قائماً ببعض أشياء لا تغني معظمها وإنما تقضي إلى المتاعب.. إلى أن أصبحت رجلاً.. وبعد ذلك تعرفت في ميدان السباق في إبسوم– منذ أكثر من عشرين عاماً– برجل أود أن أحطم جمجمته بمحرك النار لو أنني عثرت عليه!! كان اسمه الحقيقي كومبيض.. وهو يا عزيزي بيبب.. نفس الرجل الذي رأيتني أتشاجر معه

في فندق بالمستنقعات.كان هذا الكومبيض يدعى أنه جنتلمان وقد أدخل مدرسة داخلية "في صغره" وقد تلقى فيها تعليمه، كما كان ناعم الحديث حلو الطلعة فأستطاع أن يغريني بأن نعمل شريكين في أعمال نصب رتزييف وترويج للآوراق المالية المسروقة؛ وما شابه ذلك، إذ كان عمله تدبير كل أنواع الفخاخ ما أستطاع عقله إلى ذلك سبيلاً، مع أبعاد ساقيه عنها والحصول على مغانمها وترك غيره يتردى فيها. وكان عدم القلب كمبرد من حديد.. بارداً كبالموت. ماكراً كالشيطان.. وسرعان ما أنهمكنا في هذا العمل وأوقعني في شباك جعلتني عبداً رقيقاً له فقد غدوت مديناً له على الدوام وتحت سلطانه إلى الأبد.. عاملاً من أجله طوال العمر.. متردياً في الخطر باستمرار. وأخيراً.. سجناً معاً بتهمة أوراق مالية مسروقة.. عدا أتهامات أخرى.. ولكن المحلفين أوصوا بالعطف على كومبيض نظراً لحسن سلوكه ولرفقة السوء ولأنه زودهم بكل ما أستطاع من معلومات ضدي. ولذلك حكم عليه بالسجن سبع سنوات وحكم علي بأربعة عشر عاماً. وقد أودعنا نفس السجن ولكني لم أستطع أن أنا منه رغم محاولاتي. وأخيراً.. تسللت خلفه وضربته على وجنته لأجله يستدير فأهوى عليه بضربة قاضية زلكنهم شاهدوني ذاك وقبضوا علي.. ثم وفقت في الهرب من "سجن السفينة" وأختبأت بين القبور بالقرب من الشاطيء.. وهناك رأيتك يا ولدي! ومنك يا ولدي العزيز عرفت أن كومبيض خرج هو الآخر إلى المستنقعات. وأنني لأعتقد أنه إنما هرب من السجن رعباً مني ولم يكن يدري أنني سبقته إلى الشاطيء.. ولذلك رحت أتصده ثم أهويت على وجهه بشدة وقررت غير عابيء بنفسي أن أعيده إلي سفينة السجن بأعتبار

ذلك أسوأ ما يمكن أن أفعل به، وإذا بالجنود يجيئون ويقبضون علينا نحن الأثنين ثم كبلوني بالحديد وقدموني للمحاكمة مرة أخرى فحكم علي بالنفي مدى الحياة.. ولكن يا ولدي العزيز ويا صديقي بيب لم أبق "في النفي" مدى الحياة لأنني الآن هنا.

– هل مات؟

– ثق أنه لو كان الآن حياً لتمنى لي الموت.. أنني لم أسمع المزيد عنه بحال وكان هربرت يكتب على غطاء كتاب فدفعه إلى برفق عندما وقف بروفيس يدخن وعيناه على النار، فقرأت «كومبيض هو الرجل الذي يدعي أنه عاشق مس هافيشام» ثم أغلقت الكتاب وأومأت برأسي إيماءة ضئيلة إلى هربرت ولكن أحدنا لم ينطق ببنت شفة وإنما أخذنا نتطلع إلى بروفيس وهو يدخن بجرار الموقد.

الفصل الثالث والعشرون

قررت أن أقابل استيلا ومش هافيشام قبل أن أركب السفينة مع بروفيس ولذلك ذهبت إلى رتشموند في اليوم التالي ولطن الخادمة أخبرتني أن استيلا قد ذهبت إلى سايتس هاوس. وفي الصباح التالي مضيت إلى المدينة، ولما وقفت العربة أمام فندق الخنزير الأزرق رأيت بنتلي داربل خارجاً منه! وكانت رؤيتي له في المدينة بمثابة السم لأنني كنت أعرف جيداً سبب مجيئة إلى هناك.

ذهب كلانا إلى غرفة القهوة حيث أكمل إفطاره وطلبت فطوراً لي.. وكان لقاء بغيضاً لغاية إذ دعا النادل "الجرسون" وقال له:

– هل جوادي معد؟

– وجئت به إلى الباب يا سيدي.

– أسمع.. إن السيدة لن تركب اليوم لأن الطقس غير ملائم.

– حسناً جداً يا سيدي.

ثم رمقني دراميل بنظرة وقد أرتسمت على وجهه آيات الأنتصار الوقح التي أدت قلبي، فلما ذهب شعرت بالراحة والخلاص. وأغتسلت وأرتديت ملابسي ثم مضيت إلى سايتس هاوس حيث كانت مش هافيشام جالسة بجوار الموقد، بينما جلست استيلا على وسادة عند قدميها وهي تشتغل بأبرتها، فأخبرت مس هافيشام بأنني أكتشفت من هو المحسن، إلي وعندئذ أعترفت

بأنها سايرتني عندما أعتقدت خطأ أنها ولية نعمتي.. قلت:

– أكان هذا من الرحمة في شيء؟

فصاحت مس هافيشام وهي تضرب الأرض بعصاها وتومض عيناها فجأة بالغضب:

– من أنا.. من أنا بالله التي يجب أن تكون رحيمة؟!

فأستدرت إذ ذاك إلى استيلا وقلت:

– أنت تعرفين يا استيلا أنني أحبك.. كما تعرفين أنني أحببتك من زمان ومن شغاف قلبي.

فرفعت عينيها إلى وجهي عندما حدثتها هكذا ولكن أصابعها ظلت تشتغل بالإبرة، وتطلعت إلى غير متأثرة بعواطفي فقلت:

– كان يجب أن أخبرك بذلك قبل ذلك لولا غلطتي الطويلة الأجل إذ ظننت ان مس هافيشام قصدت أن يكون كل منا للآخر! وحين كنت أعتقد أنك تحبينني تحاشيت أن أفضي إليك بحبي ولكن يجب أن أعترف لك الآن.

فهزت استيلا رأسها وهي لا تزال غير متأثرة ودائبة على إشغال الإبرة فقلت رداً على ذلك:

– أنا أعرف.. أنا أعرف. ولا أمل لي في ان أدعوك يوماً «زوجتي» يا استيلا ومع ذلك أحبك وقد أحببتك منذ رأيتك لأول مرة في هذا المنزل.

فعادت تتطلع إلى مجردة تماماً من أي تأثر وأصابعها مشغولة ثم هزت

رأسها مرة أخرى وقالت في هدوء تام:

– يبدو أن ثمة عواطف أعجز عن فهمها، عندما تقول إنك تحبني أعرف ما تعنيه. عبارة من الكلمات ولا شيء غير ذلك لأنك لا تخاطب جارحة في صدري ولا تمس منه شيئاً ولا يعنيني إطلاقاً ما تقوله.. ولقد حاولت أن أحذرك من هذا. ألم أفعل ذلك؟

قلت في حالة تاعسة: نعم.

– نعم.. ولكنك لم تشأ أن تحذر لأنك ظننتني غير جادة، والآن أتظن ذلك؟

– كنت أظن وآمل أن لا تكوني جادة "تعنين ما تقولين" فأنت صغيرة جداً ولم تعرفي الشجو والشجن وغاية في الجمال، إن هذا "الإعراض" منك يا استيلا ليس من طبيعتك.. فأجابت:

– بل هو من طبيعتي.. من طبيعتي المكونة من دخيلتي.

وبعدئذ سألتها هل صحيح أنها تشجع بيتلي درامبل وأنها تصحبه على ظهور الجياد وأنه سوف يتعشى معها في نفس ذلك الوقت فبدا عليها بعض الدهش لعلمي بذلك ولكنها أجابت:

– صحيح جداً.

– لا يمكن أن تحبيه يا استيلا.

– ماذا قلت لك؟ ألا تزال تظن ذلك أنني لا أعني ما أقوله؟

– لن تقبلي الزواج منه يا استيلا.

فنظرت إلى مس هافيشام ثم فكرت لحظة وشغلها مازال في يدها ثم قالت:

– لماذا لا أصارحك بالحقيقة، إنني سوف أتزوجه.

فدفنت وجهي في يدي ولكني أستطعت أن أضبط مشاعري خيراً مما كنت أتوقع وأنا أفكر في الألم الذي سببه لي أن أسمعها تنطق بتلك الكلمات ثم قلت:

– استيلا يا أعز عزيزة لدي، لا تدعى مس هافيشام تقودك إلى هذه الخطوة المدمرة القاتلة، أطرحيني جانباً إلى الأبد– كما أعلم أنك قد فعلت.

– ولكن لتهبي نفسك لشخص أجدر من دراميل فإن مس هافيشام تقدمك له كأعظم سبة وإيذاء يمكن إلحاقهما بكثيرين أفضل منه يعجبون بك والقلائل يحبونك حباً صادقاً.

فقالت بصوت أرق:

– سأتزوجه وقد أتخذت الأستعدادات اللازمة لزواجي الذي سيتم عاجلاً ثم لماذا تحاول الإساءة إلى أسم والدتي بالتبني وهذا الزواج من عملي المحض؟

– هل عملك المحض يا استيلا أن ترى نفسك مع وحش فظ؟ مع مثل هذا الوحش الوضيع الغبي:

– لا تخش أن أكون نعمة وبركة عليه فلن أكون ذلك! على رسلك! هذه يدي فهل يليق أن نفترق هكذا أيها الصبي أو الرجل الخيالي؟

قلت ودموعي تتساقط بمرارة وبسرعة على يدها:

– أوه يا استيلا! كيف أستطيع أن أراك زوجة لدراميل؟

فأجابت. هراء! هراء! سوف تنسى حالاً.

– أبداً يا استيلا.

– سوف تتزعني من أفكارك بعد أسبوع.

– أنتزعك من أفكاري! أنك جزء من كياني.. من نفسي وليباركك الله ويسامحك!

لقد تقضي كل شيء.. وذهب كل شيء! إن الكثير قد قضى وأنقضى حتى إذا خرجت من البوابة بدا ضوء النهار في لون أشد حلكة مما كان عند ذهابي! وسرت طوال الطريق إلى لندن على قدمي لأنني لم أستطع العودة إلى الفندق ومشاهدة دراميل ولم أقو على أحتمال الجلوسفي العربة، وأن يتحدث إنسان إلي.

وأنتصف الليل عندما كنت أعبر جسر لندن ولما بلغت بوابة منزلي أعطاني البواب الليلي مذكرة وأخبرني أن الرسول الذي جاء بها توسل أن أقرأها على ضوء الفانوس. ولدهشتي لهذا الرجاء، تناولت المذكرة ثم فتحتها والحارس يرفع نوره فقرأت بداخلها وبخط ويمك:

«لا تذهب إلى المنزل».

الفصل الرابع والعشرون

أكترثت عربة أقلتني إلى فندق في جاردن كوفنت حيث قضت الليلة. وفي الصباح التالي ذهبت في ساعة مبكرة لمقابلة ويميك في منزله. وهناك رحب بي وأوضح لي السر قائلاً إنه سمع في سجن نيوجيت أن بروفيس موضع الشك وإن مسكني بجاردن كورث مراقب ولذلك رأى لزاماً عليه أن ينذرني.. هذا إلى أن أكتشف أن كومبيض في لندن مؤقتاً ثم نصحني أن لا أحاول السفر على ظهر السفينة قبل أن تفتر حدة البحث والتفتيش. ولما لم يجدن بمنزلي ذهب إلى بيت هربرت في كلاليكر ثم أتفقا فيما بينهما على ترتيبات طيبة لسلامة بروفيس، وبصفة مؤقتة أوياه في طابق علوي مفروش "أي مؤنث" بمنزل قريب من النهر تقيم فيه كلارا خطيبة هربرت الشابة ووالدها المريض. وقد حدثني ويميك بأن هذه الخطة جيدة لثلاثة أسباب، أولها أن هذا المنزل يبعد كثيراً عن شقتي فلا يحاول أحد أن يسأل عني فيه، وثانيها أنني أستطيع أن أسمع بسلامة بروفيس عن طريق هربرت دون الإقتراب بنفسي من ذلك المنزل، وثالثاً أنه سيكون على أتم الأهبة إذا ما أمنا أن نحمله على ظهر سفينة أجنبية.

شعرت لذلك بسعادة أكبر كثيراً جداً فشكرت ويميك مرات ومرات وبعد ذلك نصحني بأن ألازم منزله حتى يعتكر اليوم ثم تركني أنعم برفقة والده. ولما أرخى الليل سدوله تماماً خرجت لأبحث المكان المعروف بأسم شاطيء "ميل بون" وبعد أن ضللت طريقي عدة مرات، إهتديت إليه على

غير أنتظار فطرقت بابه، وأجابت على طرقاتي إمرأة عجوز صبيحة الوجه وسرعان ما قدم هربرت وقادني في صمت إلى حجرة الأستقبال. ثم قال:

– كل شيء على ما يرام يا هانديل وهو راض تمام الرضا وإن كان يتلهف على مقابلتك أما فتاتي العزيزة فمع والدها "وقد سمعته يزمجر في الطابق العلوي" فإذا أنتظرت حتى تنزل عرفتك بها ثم صعدنا إلى بروفيس.

وفيما كنا نتحدث بصوت خافت؛ فتح باب الحجرة ثم قدمت فتاة طاغية الجمال في حوالي العشرين من عمرها وهي تحمل سلة في يدها، فأسرع هربرت يريحها من السلة بحنان ثم قدمها لي بأسم كلارا، وقال:

– أنظر ها هو عشاء كلارا كما يعده والدها في كل ليلة لأنه يصر على أن تخزن كل المؤون ف حجرته وأن يتولى إعدادها بنفسه.

***

كان بروفيس يقيم بحجرتين بأعلى المنزل، ولم يبدو منه ما يدل على الفزع أو يشعر بشيء منه فأخذت أروي له كيف تناهى إلي سمع ويميك في سجن نيوجيت أن بعض الشك يحيط به وبأن شقتي مراقبة، وكيف أوصى ويميك بأن يظل "بروفيس" مختبئاً لبعض الوقت ويأن أبتعد أنا عنه، ثم أضفت إلى ذلك أنني عندما يحين الوقت لصعوده إلى السفينة، سوف أذهب معه أو أتبعه من قريب حسبما يكون الأمر أسلم وآمن، ثم عرض هربرت أقتراحاً لا بأس به إذ قال:

– كلانا "مراكبي" ماهر يا هانديل ويستطيع نقل بروفيس عن طريق النهر في الوقت المناسب، فهل من المستحسن أن تشرعا من الآن في شراء

قارب ثم تعتادا التجديف أعلى وأسفل النهر؟ سوف يصبح لكما ذلك بمثابة العادة فلا يلحظ أو يهتم بأمر كما إنسان.

راقت لي الحظة كما راقت لبروفيس، فأتفقنا على تنفيذها، كما أتفقنا على أن ينزل برفيس "شيش" نافذته المطلة على النهر كلما رآنا قادمين في قاربنا كي يمضي كل شيء على ما ينبغي، تم تمنينا لبروفيس ليلة طيبة وغادرناه..

وفي اليوم الثاني جئت بالقارب إلى سلالم "عمارة التمبل" وأرسيته حيث أستطيع الوصول إليه في مدى دقيقة أو أثنين، وبعد ذلك، طفقت أخرج للتدرب والتمرن أحياناً بمفردي، وأحياناً مع هربرت، ثم لم يعد أحد يهتم كثيراً بعد أن خرجت بضع مرات، ولم أتوغل بعيداً في أول الأمر ولكن سرعان ما أخذت أبتعد إلى شاطيء "ميل بوند" وكان هربرت يقابل بروفيس ثلاث مرات على الأقل في كل أسبوع، ولم يجئني قط بأنباء مزعجة وإن كنت أعرف أن ثمة ما يدعو إلى الإنزعاج، ولم أقو على التخلص من بروفيس ثلاث مرات على الأقل في كل أسبوع، ولم يجئني قط بأنباء مزعجة وإن كنت أعرف أن ثمة ما يدعو إلى الإنزعاج، ولم أقو على التخلص من التفكير في أنني مراقب بيد أنني لم يكن أمامي ما أعمله سوى أن أنتظر إشارة من ويميك.

الفصل الخامس والعشرون

وذات يوم.. كنت أتنزه قبل العشاء عندما قابلني مستر جاجرز ودعاني للعشاء معه في منزله بشارع جيرارد.. وكنت أهم بالأعتذرار عندما أردف قائلاً:

– إن ويميك قادم.

فقبلت الدعوة.. وذهب كلانا إلى مكتبه حيث أنهى أعمال اليوم ثم أستقللنا عربة إلى منزل مستر جاجرز وفي رفقتنا ويميك.. وبمجرد أن وصلنا إلى هناك، أعد العشاء.. وأسترعى أنتباهي خادمة منزله، وهي إمرأة في حوالي الأربعين من عمرها، وكنت قد رأيتها في منزل مستر جاجرز في زيارة سابقة.. كانت طويلة نوعاً ما.. غاية في الشحوب.. ذات عينين واسعتين خابيتين وشعر غزير منساب, ولتلك المناسبة كانت تضع على المائدة صحنا عند مرفق سيدها الذي حدثها قائلاً إنها أبطأت.. ولاحظت حركة خاصة من أصابعها وهي تتحدث إليه وكأنها تشتغل بأبرتها، ثم وقفت تنظر إليه وهي لا تدري هل لها حرية الذهاب أو أن لديه شيئاً آخر يود أن يقوله لها، كانت نظرتها متلهفة.. ولا شك أنني رأيت من قبل مثل هاتين العينين وهاتين اليدين في مناسبة قريبة لا تنسى.

ثم طردها فأنسلت خارجة من الحجرة.. ولكنها ظلت مائلة أمام عيني واضحة كما لو كانت هناك، فمضيت أنظر "بمخيلتي" إلى هاتين اليدين وهاتيك العينين كما نظرت إلشعرها المنساب ثم قارنتها جميعاً باليدين

الأخريين ثم بالعينين الأخريين ثم بالشعر الآخر كما كنت أعرفه وبما سيكون عليه بعد عشرين عاماً مع زوج وحشي وفي حياة عاصفة.. ثم شعرت شعوراً أكيداً بأه هذه المراة إنما هي والدة استيلا.

ولنا أنتهى العشاء أستأذنت وويميك مبكرين، ثم أنصرفنا معاً، وفي الطريق طلبت إلى ويميك أن يخبرني بما يعرفه عنها.. وها هو ذا ما قاله لي:

– منذ حوالي عشرين سنة حوكمت هذه المرأة في جريمة قتل ثم أبرئت ساحتها.. كانت امرأة شابة في غاية الجمال، وأعتقد أن بها دما غجرياً، وقد دافع عنها مستر جاجرز في المحكمة، وأدار القضية بطريقة مدهشة جداً.. فقد كانت القتيل امرأة تكبرها بعشر سنوات وأقوى منها بكثير.. وكانت قضية غيرة، فإن هذه المرأة التي تقيم هنا في شارع جيرارد كانت متزوجة من شاب صغير هائم على وجهه، وقد وجدت القتيل ميتة في جرن؛ وكان هناك ما يدل على نضال عنيف بل ربما قتال، وكانت القتيل مثخنة بالرضوض والخدوش والتمزيقات، وفي النهاية أطبق القاتل على رقبتها فماتت مخنوقة.. أما المرأة المتهمة فلم تصب بغير أحد الرضوض أو أثنين ولكن ظهر كل من يديها كان ممزقاً.. وقد كان السؤال: هل حدث هذا بالأظافر؟ ولكن مستر جاجرز دلل على أنها كانت تصارع من خلال طريق مليء بالأشواك والعواسج وأن بعض هذه الأشواك قد وجد فعلا في جلدها، ولعل أجرأ ما قام به ما يلي: كانت موضع شك قوي في أنها في أثناء وقوع الجريمة تقريباً، قضت على طفلتها من هذا الرجل– وعمرها ثلاث سنوات– كي تثأر لنفسها منه..

– إنكم لا تحاكموها على قتل طفلتها.. لم لا؟

وقصارى القول فقد تفوق مستر جاجرز بمهارته على المحلفين مما جعلهم يستسلمون لآرائه:

– وهل هي في خدمته منذ ذلك الوقت؟

فقال ويميك:

– نعم.

فسألت:

– وهل تذكر جنس هذا الطفل؟

– يقال إنها بنت.

ثم تبادلنا تحية المساء وذهبت إلى منزلي بزاد جديد من الأفكار وإن لم أتخلص بعد من الأفكار القديمة.

***

كانت مس هافيشام قد أرسلت لي خطاباً تقول فيه إنها تود مقابلتي لأمر من أمور العمل كنت قد ذكرته لها، وهكذا ذهبت في اليوم التالي إلى سايتس هاوس. وكان العمل المشار إليه يخص هربرت إذ نت قد أخبرتها بأنني أحاول مساعدة صديق وأنني لا أستطيع المضي في ذلك لأسباب كنت ملزماً بأ أحتفز بها سراً من الأسرار، وعندئذ سألتني كضم من النقود أحتاج إليها. فقلت:

– تسعمائة جنية.

فسألت:

– إذا أنا أعطيتك النقود لهذا الغرض، فهل سيكون بالك أكثر راحة؟

– أكثر راحة.. جداً.

وحينئذ كتبت أمراً لمستر جاجرز كي يدفع لي النقود، وقد كانت جد أسفة للشقاء الذي سببته لي، فضغطت يدي وهي تبكي ثم صاحت يائسة:

– أوه.. ماذا تراني فعلت! ماذا فعلت!

– إذا كنت تعنين يا مس هافيشام ما فعلته للأضرار بي فدعيني أجيب:

إنه ضرر بسيط.. وسأحبها مهما كانت الظروف.. هل تزوجت؟

– نعم!

ثم قالت:

ولقد كان سؤالاً لا داعي له، لأن وحشة طارئة في هذا المنزل الكئيب قد حدثتني بذلك.

ثم قالت:

– لو كنت تعلم قصتي لأشفقت علي ولكنت أحسن فهما لي..

فأجبت:

– يا مس هافيشام.. أؤكد لك أنني أعرف قصتك وأنها ألهمتني كثيراً

من الرثاء.. فهل لي أن ألقي عليك سؤالاً عن طفولة استيلا.. ابنة من كانت استلا؟

فهزت رأسها.. فقلت:

– ألا تعرفين أنت؟

وعادت تهز رأسها.. فقلت:

– ولكن هل جاء بها جاجرز أو بعث بها إليك؟

– هو الذي جاء بها إلى هنا.

– هل لي أن أسأل: كم كانت سنها وقتذاك؟

– سنتين أو ثلاثاً، وهي نفسها لا تدري شيئاً سوى أنها كانت يتيمة وأنني تبنيتها.

فاقتنعت بأن تلك المرأة هي أمها أقتناعاً لم أكن في حاجة معه إلى دليل يدعم هذه الحقيقة برأسي.. ثم فيم كنت أطمع أكثر من ذلك بإطالة الزيارة؟ لقد وفقت فيما يعود بالمصلحة على هربرت، كما أخبرتني مس هافيشام بكل ما تعرفه عن استيلا.. ثم أفترقنا على ذلك.

الفصل السادس والعشرون

قام هربرت بعدة زيارات إلى المنزل الواقع في نهاية النهر حيث تعيش كلارا ووالدها وبروفيس، وفي ذات المساء قال لي:

– لقد قضيت مع بروفيس ساعتين في الليلة الماضية يا هانديل فحدثني بالمزيد عن حياته إذ أنه تكلم عن امرأة عانى منها كثيراً من المتاعب.. كانت شابة غيوراً.. منتقمة.. منتقمة يا هانديل إلى أقصى حد.

– إلى أي حد أقصى؟

– القتل.

– كيف قتلت؟ ومن الذي قتلته؟!

– امرأة أخرى أقوى منها.ز في جرن إذ هناك نشب العراك ثم وجدت الضحية مخنوقة، وقد تولى مستر جاجرز الدفاع عن القاتلة.. وكان لهذه المرافعة من الشهرة مما جعل إسم الحامي معروفاً لدى بروفيس.

– وهل أدينت المرأة؟

– كلا.. لقد برئت.. وكان لهذه الشابة التي أبرئت ساحتها طفلة صغيرة من بروفيس الذي أولع بها للغاية. وفي مساء نفس تلك الليلة التي خنقت فيها المرأة التي أثارت غيرتها، تقدمت إلى بروفيس مقسمة أنها سوف تقضي على الطفلة وتهدد بأنه لن يراها مرة أخرى.. ثم أختفت.

– وهل برت المرأة بقسمها "بتهديدها".

– نعم.

– هذا ما قاله هو.

– طبعاً يا ولدي العزيز.. هو الذي قال هذا كله.. ثم أخذت أم الطفلة نصيبها في أربع أو خمس سنوات من الحياة الشقية التي وصفها لنا. ويبدو أنه رثى لحالها ولهذا خشى أن يطلبوه ليدلي بشهادة عن هذه الطفلة التي تحطمت حياتها ويكون سبباً في موت الأم، فأخفى نفسه من الطريق.. ومن المحاكمة، ولم تأت سيرته إلا غامضة وبأسم رجل يدعى آبيل وأنه كان مثار الغيرة.. ثم أختفت الشابة بعد أن برئت ساحتها.. وهكذا فقد الطفلة وأم الطفلة. أما الوغد كومبيض الذي كان يعلم بأختفاء آبيل من الطريق إذ ذاك ويعلم الأسباب التي دفعته إلى ذلك، فقد سلط على رأسه سيف التهديد كي يمعن في إذلاله ويحمله على مضاعفة العمل.

– وهل أخبرك متى حدث ذلك؟

– منذ حوالي عشرين سنة.

قلت:

–أنظر إلي يا هربرت.. المنسي.. ألا تشك في أنني محموم؟

فقال هربرت:

– كلا يا ولدي العزيز.. إنما أنت منفعل ثائر ولكنك بخير.

– أنا أعلم أنني بخير كما أعلم أن الرجل الذي نخفيه في جنوب النهر هو والد استيلا.

الفصل السابع والعشرون

وفي صباح يوم أثنين.. عندما كنت وهربرت نتناول طعام الإفطار تسلمت الخطاب التالي من ويميك.

«أحرق هذا بمجرد أن تقرأه.. تستطيع في أوائل الأسبوع.. وليكن ذلك في يوم الأربعاء. أن تعمل ما تعرفه إذا ما شئت أن تحاول. والآن أحرق خطابي».

وبعد أن عرضت الخطاب على هربرت ألقيته في النار ثم أخذنا نفكر فيما عسانا أن نعمله.. ثم قال هربرت:

– فقد فكرت في الأمر مراراً وأظنني أعرف طريقاً أفضل من أتخاذ نوتي بنهر التأمين.. خذ ستارتوب فهو شخص طيب ونوتي ماهر كما أنه مولع بنا شديد الرغبة في خدمتنا.. كما هو غاية في الأمانة.. هل سنذهب مع بروفيس؟

بلا شك.

– إلى أين؟

لم يكن يهم كثيراً إلى أين نذهب فيما لو غادر بروفيس أنجلترا فحسب، إذ كان يكفي أن نلقي في طريقنا باخرة أجنبية تحملنا على ظهرها. وقد كانت خطتنا أن نمضي إلى جزف النهر في اليوم السابق لإيجار أي باخرة من لندن ثم ننتظر في بقعة هادئة إلى أن نستطيع التجديف إليها في أحد

الزوارق.

وافق هربرت.. فخرجنا بعد الفطور لنستعلم عن مواعيد رحيل البواخر، فوجدنا أن سفينة قادمة من همبرج ربما كانت أصلح لأغراضنا وكان ستارتوب شديد الرغبة في مساعدتنا. وكان عليه وعلى هربرت أن يجدفا بينما أدير أنا الدفة، كما كان على هربرت أن يعد بروفيس للنزول على ضفة النهر في يوم الأربعاء عندما يرانا نقترب. لأقبل ذلك.

وبعد عمل هذه الترتيبات، عدت إلى المنزل. وعندما فتحت باب شقتي وجدت خطاباً بالصندوق مرسلاً إلي. وقد جاء به:

«إذا كنت لا تخشى الحضور إلى المستنقعات الليلة أو غداً في الساعة التاسعة والذهاب إلى المنزل الصغير الملاصق لأتون الجير فالأفضل أن تحضر وإذا كنت بحاجة إلى معلومات بشأن بروفيس فخير لك أن تحضر على أن لا تخبر أحداً أو تضيع وقتاً. وأن تحضر بمفردك».

كان رأسي مثقلاً بالأعباء بما فيه الكفاية قبل أن يجيء هذا الخطاب فحرت، ما عساي أن أفعل إذ ذاك؟! وأخيراً تركت مذكرة لهربرت أخبره فيها أنني قررت القيام بزيارة قصيرة لمس هافيشام ثم أستقللت العربة إلى المدينة.

كان الظلام سائداً قبل أن أهبط من العربة ثم تجنبت فندق "الخنزير الأحمر" ودخلت فندقاً أصغر منه بالمدينة حيث طلبت طعاماً لعشائي.. وبعد أن تناولته أرتديت معطفي وخرجت ميمما شطر المستنقعات مباشرة.

كانت ليلة حالكة الظلام تهب عليها رياح كئيبة وتبدو فيها

المستنقعات قاتمة موحشة.. وبعد أن سرت طويلاً أبصرت نوراً في المنزل الملاصق لأتون الجير فأسرعت نحوه وطرقت بابه ولكن لم أتق جواباً فطرقت مرة ثانية بلا جدوى كذلك.. ثم عالجت "السقاطة" فتحركت تحت يدي وأستسلم الباب.. وإذا نظرت إلى الداخل رأيت شمعة مضاءة على مائدة ومقعداً وسريراً فصحت عالياً:

– هل يوجد أحد هنا؟

هل يوجد أحد هنا؟

ولكن صوتاً لم يجب فعدت أصيح مرة أخرى. ولما لم أتلق جواباً خرجت لأرى ماذا أعمله!!

أخذت الأمطار تهطل فقفلت عائداً إلى المنزل ووقفت على عتبة الباب من الداخل.. وفجأة.. إنطفأت الشمعة. وكان ثاني شيء عرفته أن شخصاً ألقى حبلاً على رأسي ثم أوثق يدي إلى جنبي. وقال صوت يسب ويلعن:

– هأنذا الآن قد أمسكتك!

فصحت مناضلاً:

– ما هذا. من هذا؟ النجدة النجدة؟

وأستقرت يد رجل قوية على فمي لتخمد صيحاتي بينما كنت أوثق بشدة إلى سلم يبعد عن الحائط بضع بوصات.. ثم قال الصوت:

– صح الآن مرة أخرى لأجهز عليك.

ثم أشعل الرجل ضوءاً أوقد به الشمعة فرأيت أنه أورليك الذي قال لي

بعد ان أخذ كل منا يتطلع ملياً إلى الآخر:

– هأنذا الآن قد أمسكتك!

صحت:

– حل وثاقي. دعني أذهب.

فأجاب:

– آه. سأدعك تذهب.. سأدعك تذهب إلى القمر "أي سأقتلك" سأدعك تذهب إلى النجوم "أي سأقضي عليك".. كل ذلك سيتم حالاً.

وجلس يهز رأسه إلي ثم مد يده في الركن الذي بجانبه ورفع منه بندقية صوبها إلي قائلاً:

– أتعرف هذه؟ أتعرف أين رأيها قبل ذلك؟ تكلم أيها الذئب.

أجبت: نعم.

"إذ كنت رأيتها بحجرته في سايتس هاوس عندما كان يعمل بواباً هناك".

– أنت الذي أضعت تلك الوظيفة علي، أليس كذلك؟ تكلم.

سألته:

– متى فعلت ذلك؟

فقال:

– بل متى لم تفعل ذلك؟ إنك أنت الذي كنت تشهر أمامها دائماً

بالكهل أورليك.

– إنما أنت الذي شهرت بنفسك وأكسبتها الشهرة السيئة، والآن ماذا أنت فاعل بي؟

– سأقضي على حياتك ولن أبقى منك على الأرض خرقة واحدة أو عظمة واحدة، بل ألقي بجسمك في أتون الجير المشتعل.

كان مخموراً، أحمر العينين، وحول رقبته علقت زجاجة من الصفيح رفعها إلى شفتيه وجرع منها مرة أخرى ثم قال:

– أيها الذئب، سأقول لك شيئاً: هو أنك أنت الذي ضربت أختك؟

– لقد كنت أنت أيها الشرير.

– قلت لك إنها فعلتك أنت.. أنت الذي كنت تؤثر بالأعزاز بينما كان أورليك ينهر ويضرب!! لقد آن أن تدفع الثمن.

ثم أخذ يجرع مرة أخرى.. حتى إزداد وحشية.. وعندئذ رفع الشمعة وجعلها تشتعل لصق وجهي مما جعلني أدير وجهي جانباً لأنقذه من اللهب.

وفجأة.. توقف.. ثم أحتسى الخمر مرة أخرى.. وبعد ذلك أنحنى ثم رأيت في يده مطرقة من الحجر ذات يد ثقيلة!! ومن غير أن أنبس بكلمة ضراعة ورجاء، صحت عالياً وناضلت بكل قواي.. وفي نفس اللحظة.. سمعت صيحات أستجابة!! ثم رأيت أشباحاً وبصيصاً من النور يندفعان نحو الباب.. ثم سمعت أصواتاً ورأيت أورليك يصارع رجالاً ثم رأيته يفلت من

أيديهم ليهرب في ظلام الليل.

وعندئذ أغمى علي.. ثم أفقت لأجد نفسي راقداً محلول الوثاق.. على الأرض في نفس المكان.. ورأسي على ركبة أحدهم.. بينما كان آخر منحنياً فوقي.. وكان هربرت ستارتوب!! فضمدت ساعدي الذي أصيب في أثناء صراعي لتحرير نفسي.. وبعد قليل كنا في طريقنا عائدين.

أخبرني هربرت كيف خفا لنجدتي إذ كنت لتعجلي قد ألقيت الخطاب بنفسي.. فلما جاء هربرت إلى المنزل ومعه ستارتوب عثرا عليه بمجرد ذهابي.. وأفلقته لهجة الخطاب، وبخاصة لأنه كان لا يتناسب مع الخطاب المستعجل الذي تركته لي، فأنطلق هو وستارتوب.. ثو وصلا بمعاونة الدليل إلى المنزل الصغير الملاصق لأتون الجير.. وعندما سمعوا صيحاتي رد عليها هربرت ثم أندفع يتبعه الأثنان الآخران.

وإذا كان يوم الأربعاء قريباً جداً، فقد أعتزمنا العودة إلى لندن في تلك الليلة بالذات، فبلغناها على ضوء النهار. وذهبت لتوي إلى الفراش ورقدت عليه طوال النهار.. أما هربرت وستارتوب فقد حملاني على أن أستريح وأبقيا ساعدي مضمداً بأستمرار كما أعطياني مشروبات منعشة.. وكنت كلما أستغرقت في النوم صحوت مفزوعاً ظناً مني أن فرصة إنقاذ بروفيس قد ولت.

الفصل الثامن والعشرون

كان صباح الأربعاء أحد أيام شهر مارس التي تشرق فيها الشس دافئة وتهب رياحها باردة، ولذلك ارتدينا معاطف البحارة القصيرة وأخذت معي حقيبة.. أما أين أنا ذاهب وما عساي أن أفعل ومتى أعود؟؟ فكانت أسئلة لا علم لي بها على الإطلاق.. وأخذنا نمشي الهويني إلى درج "عمارة التمبك" ثم وقفنا هنالك متراخين متوانين كأننا لم نعقد العزم أن ننزل إلى الماء بحال. وبعد ذلك ركبنا في القارب وأبتدأ في المسير وكان هربرت وستارتوب يجدفان بينما توليت أنا إدارة الدفة.

وكانت خطتنا ما يلي: أعتزمنا أن نجدف في النهر حتى يعتكر الظلام فتكون إذ ذاك بين كنت واسكس حيث يتسع النهر وينعزل وحيث يقل عدد من يسكنون على الشاطيء حيث تتناثر المشارب المنفردة هنا وهناك ونستطيع أن نختار أحدها مكاناً لأستراحتنا، وقد عزمنا على أن نسكن إلى الهدوء هناك طول الليل.. وكانت الباخرة الذهابة إلى همبرج تتحرك من لندن حوالي التاسعة من صبيحة الخميس، ولذلك وجب أن نعرف متى نتوقع مجيئها بالنسبة لمكاننا كي نجتذب أنتباهها بدعوتها.

ولقد أنعشني بالأمل الجديد ذلك الهواء الثاقب وضياء الشمس وحركة النهر.. وسرعان ما قطعنا جسر لندن القديم فأستطعت وأنا جالس إلى الدفة أن أرى البيت الذي يقيم فيه بروفيس وسلم النزول إلى البحر بجواره.. وسألني هربرت:

– هل هو هناك؟

قلت:

– كلا بعد.. نعم إنني آراه الآن.. شدا كلاكما المجاديف.. على رسلك يا هربرت! شد المجاديف.

ثم مسسنا السلم برفق للحظة واحدة حتى صعد إلى ظهر الباخرة ثم أبتعدنا مرة أخرى.. وكان يحمل معه معطفاً فضفاضاً من معاطف "المراكبية" وحقيبة من الخيش الأسود وبدا أشبه بالريان الذي أشتهيه ثم قال وهو يضع ذراعه على كتفي ويتخذ مقعده:

– يا ولدي العزيز! يا ولدي العزيز المخلص. لقد أحسنت صنعاً فأشكرك. أشكرك.

كان أقلنا قلقاً لا لأنه لم يكن مكترثاً فإنه أخبرني بأمله في أن يعيش ليراني من خيرة السادة في بلد أجنبي، وإنما لم يكن ليزعج نفسه بالخطر قبل أن يدهمه.. وظللنا نجدف طوال النهار اللهم إلا حين كنا نمضي إلى الشاطيء بين الأحجار الملساء لنأكل ونشرب.. ولكن الليل كان يرخي سدوله بسرعة فأخذت أتطلع منقباً عن شيء يشبه منزلاً.

وأخيراً شاهدنا ضوءاً وسطحاً فمضينا إلى الشاطيء ثم جذبنا القارب لفترة الليل.. وعثرنا على المكان المعد ليكون مشرباً وهو مكان تغلب عليه القذارة ولكن كان بمطبخه نار طيبة وبيض ولحم خنزير مقدد للأكل ومختلف المشروبات للأحتساء، كما كان به مخدعان للنوم بكل منهما فراشان بحيث نستطيع أن نشغلهما نحن الأربعة.. وبعد أن تبادلنا وجبة

طيبة بجوار نار المطبخ، أوينا لمضاجعنا.. أما أنا فقد رقدت مرتدياً معظم ملابسي ثم أستغرقت في نوم هانيء لبضع ساعات، أستيقظت بعدها لأطل من النافذة فرأيت رجلين يتطلعان إلى قاربنا بعد أن مرا تحت النافذة.. ولما كان الظلام لا يزال سائداً فقد أختفيا عن ناظري وعدت لأستغرق في النوم من جديد.. ثم أستيقظنا في ساعة مبكرة فلما قصصت ما شاهدت، اتفقا– على سبيل الأحتياط– أن أذهب وبروفيس إلى نقطة يقلنا القارب منها بعد ذلك.

نفذت هذه الخطة.. ولما لحق بنا القارب ركبنا فيه ثم جدفنا في أثر الباخرة.. وبلغت الساعة منتصف الثانية قبل أن نرى دخانها وسرعان ما شاهدنا خلفها دخان باخرة أخرى. ولما كانتا قادمتين بأقصى سرعة، فقد أعددنا الحقيبتين ثم أستودعنا هربرت وستارتوب. وبعد ذلك.. شاهدت سفينة شراعية ذات أربعة مجاديف وهي تندفع بسرعة من الشاطيء على مسافة صغيرة أمامنا ثم تعمل مجاديفها متأثرة نفس الطريق.. وكان الباخرة آنذاك قد أقتربت كثيراً وفجأة.. شقت السفينة الشراعية طريقنا وباتت بجانبنا!! وإلى جانب المجدفين، كان بالسفينة رجلاً أحدهما ضابط يمسك الدفة. أما الآخر الذي كان متدثراً "ملفوفاً" مثل بروفيس، فقد كان بادي الإنكماش وقد أسر شيئاً إلى ماسك الدفة وهو يرنو إلينا.

وأستطاع ستارتوب– بعد بضع دقائق– أن يتبين الباخرة الأولى ثم قال في صوت خافت:

– هامبرج.

وكانت تقترب منا بسرعة كبيرة.. وكانت ضربات دولابها تعلو شيئاً فشيئاً وأحسست بأن ظلها يغطينا عندما نادانا رجالها.. وقال ماسك الدفة:

–لديكم محكوم عليه آبق من المنفى إلى بلاده.. وهو الرجل المتدثر بالمعطف واسمه آبيل ماجويتش وبالأحرى بروفيس وأنا أطلب إلى الرجل أن يستسلم وإليكم أن تساعدوني.

وفي نفس اللحظة، جعل قاربه يصطدم بقاربنا وسرعان ما كان المجدفون يمسكون بجانب قاربنا قبل أن نفطن إلى ما يعملون. وكانت النتيجة أن ساد أضطراب شديد على ظهر الباخرة ثم سمعتهم ينادوننا كما سمعت أوامر تلقى لإيقاف الدواليب فتقف، ولكنني أحسست الباخرة تقف صوبنا، وفي نفس اللحظة، شاهدت ماسك دفة السفينة الشراعية يضع يده على كتف سجينه ثم رأيت بروفيس وهو يشد المعطف من عنق الرجل الكامش الذي كان وجهه نفس وجه المجرم الآخر القديم!! ثم رأيت هذا يتعثر إلى الخلف وقد أرتسم الخوف الشديد على معارف وجهه وسمعت صيحة مدوية على ظهر الباخرة ثم صوت أرتطام شديد بالماء وشعرت بالقارب يغوص من تحتي! وبعد ذلك أخذوني إلى ظهر السفينة الشراعية حيث كان هربرت وستارتوب ولكن قاربنا كان قد أختفى كما أختفى المجرمان.

وفجأة شوهد في الماء شيء أسود وهندما أقترب رأيته ماجويتش سابحاً فرفعوه إلى ظهر السفينة ثم أوثقوا في الحال يديه وقدميه.

وجرى البحت الدقيق عن المجرم الآخر ولكن كل منا كان يعرف أنه قد

غرق.. ثم أخذوا يجدفون نحو الفندق الذي غادرناه منذ قليل وهناك أستطعت أن أوفر لماجويش بعض أسباب الراحة "من طعام وشراب" وكان قد أصيب إصابة بالغة في صدره وبجرح عميق في رأسه. وحدثني بأنه يعتقد أنه غاص تحت الباخرة وأن رأسه قد أرتطم بها عند صعوده وأنه عندما أمسك بكومبيضن، نهض هذا ثم تعثر إلى الخلف فسقط الإثنان إلى اليم معاً ثم نشب بينهما عراك تحت الماء ولكن بروفيس حرر نفسه من قبضته ثم هوى عليه فصرعه قبل أن يسبح بعيداً عنه.

ولما أستأذنت الضابط في أن أغير للسجين ملابسه المبتلة بشراء ما أستطيع من ثياب من المشرب. أذن إليه على الفور مكتفياً بأن لفت نظري إلى ضرورة فحص كل شيء مع السجين وكذلك أنتقلت إلى يديه مفكرة الجيب التي كانت معي من قبل.

وبقينا في المشرب حتى عاد المد فأنزلوا ماجويتش إلى القارب ثم نقلوه إلى ظهر السفينة. وكان على هربرت وستارتوب أن يذهبا إلى لندن عن طريق البر بأسرع ما يستطيعان، أما أنا فشعرت بأن مكاني يجب أن يكون بجانب بروفيس طالما هو حي يتنفس فقد تبدد إذ ذاك نفوري منه ورأيت فيه الرجل الذي عنى أن يكونأن المحسن إلي والذي أحبني وأعترف بيدي البيضاء عليه. وعلى الأقل رأيت فيه رجلاً وقف مني موقفاً أفضل من موقفهم مع جو.

وعندما عدنا في طريقنا إلى لندن أفضيت إليه بمبلغ حزني كلما فكرت في أنه عاد إلى الوطن لخاطري فأجابني:

– أنا راض يا ولدي العزيز بهذه المخاطرة التي أقدمت عليها والتي مكنتني من رؤية ولدي الذي يستطيع الآن أن يغدو سيداً "جنتلمان" بدوني.

كلا.. لقد فكرت في ذلك من قبل.. كلا فقد كنت أعرف أنه مادام مجرماً فإن أملاكه ستصبح ملكاً للدولة ولكنه لم يكن في حاجة إلى أن يعرف أن آماله في إثرائي قد تبددت.

الفصل التاسع والعشرون

في هذه الفترة القاتمة من حياتي.. رجع هربرت إلى البيت ذات مساء ليخبرني أنه سيغادرني على الفور لأنه قاهب في بعض الأعمال إلى القاهرة ثم سألني عما إذا كنت قد فكرت في مستقبلي ولما أجبته بالنفي قال:

– إن فرعنا بالقاهرة يحتاج يا هانديل إلي..

ورأيته لا يحب أن ينطق بالكلمة الصحيحة فقلت:

– كاتب.

– كاتب.. وآمل أن لا تستبعد أن تصبح شريكاً.. والآن هل تأتي يا هنديل!

فشكرته من قلبي وقلت إنني لست واثقاً من إمكاني الإنضمام إليه، كما تكرم وعرض علي فإجاب بأنه سيترك الموضوع دون قرار حاسم لستة شهور أو حتى سنة إلى أن أحزم رأيي. وأشتد أغتباطه عندما صافحني على هذا "الترتيب" بيننا ثم قال إنه يجرؤ الآن فيخبرني بأنه يتحتم عليه الرحيل في نهاية الأسبوع.

وفي سبت ذلك الأسبوع نفسه، ودعت هربرت الزاخر بالأمل المشرق ولكنه الآسف لمغادرتي ثم مضيت إلى منزلي الموحش بالوحدة.. أما بروفيس فقد رقد في السجن غاية في المرض طوال المدة التي ترقب فيها محاكمته ثم أشتد ضعفه تدريجاً وساءت حالته منذ اليوم الذي أغلق فيه باب السجن

عليه.

وفجأة.. جاء يوم المحاكمة وسمح له بالجلوس على مقعد في المحكمة كما سمح لي أن أقف إلى جانبه خارج القفص وأن أمسك يده.

كانت المحاكمة قصيرة غاية في الوضوح، قيل فيها كل ما يمكن قوله: كيف أعتاد العمل الجاد ثم

نجح ووفق في حدود القانون والأمانة، ولكن بقيت الحقيقة "المرة" وهي أنه راجع إلى أنجلترا! وكان عقاب عودته الإعدام، فوجب أن يستعد للموت، ولذلك طفقت أرجو وأضرع إلى الله بحرارة أن يموت بروفيس بالمرض.

وبتقصي الأيام، رأيت تحولاً أبر مما كنت قد رأيته فيه من قبل فسألته ذات يوم:

– أتشعر اليوم بالآم مبرحة؟

– أنا لا أشكو أي ألم يا ولدي العزيز.

وما إن نطق بهذه الكلمات الأخيرة حتى أبتسم ورفع يدي ليضعها على صدره فقلت له:

– يجب أن أخبرك يا عزيزي ماجويش. الآن أخيراً. أتفهم ما أقول؟ فضغط يدي برفق..

وأستطردت أقول:

–كان لك مرة.. ابنة أحببتها وفقدتها. فزاد في ضغط يدي..

– لقد عاشت ولقيت أصدقاء أقوياء.. وهي الآن على قيد الحياة.. سيدة طاغية الجمال. وأنا أحبها.

فرفع يدي إلى شفتيه بما تبقى له من جهد ضئيل.. ثم سقط رأسه بهدوء على صدره.

الفصل الثلاثون

وال"ن.. وقد تركت وحيداً فقد أعتزمت أن أخلي الشقة التي كنت أشترك فيها مع هربرت.

وكنت غارقاً في الديون لا أكاد أملك أي نقود.. كما كان المرض يشتد بي تدريجاً فقضيب يوماً أو أثنين راقداً على الأريكة برأس مثقل وأطرف تتضح بالألم.

ثم حاولت– ذات صباح– أن أجلس في فراشي فوجدتني لا أقوى على ذلك.. كانت بي حمى أعاني منها الأمرين فقضيت أيامي أشبه ما أكون في حلم مروع، وخيل إلي أن شخصاً أو أكثر بالقرب مني وخيل إلي أنه في الغالب وعلى الدوام.. جو.

وأخيراً أستطعت في يوم أن أسأل:

– أهذا جو؟

فأجابني صوته العزيز القديم:

– هو ذا يا عزيزي بيب.

كان يلازمني طوال الوقت بعد أن بلغته أخبار مرضي وقالت له بيدي: «أذهب إليه ولا تضيع الوقت».

ثم مضى يخبرني بضرورة القصد والأعتدال في كلامي وتناولي بعض

الطعام في أوقات محددة وأن أصدع بكل أوامره.

وعندئذ قبلت يده ثم رقدت ساكناً بينما أخذ يكتب خطاباً لبيدي وكان جلياً أنها هي التي علمته الكتابة.

وفي اليوم التالي أخبرني بوفاة مس هافيشام وبأنها تركت كل ما تملكه لاستيلا كما تركت أربعة من الجنيهات لمستر ماتيو بوكيت "بسبب ما قاله بيب عنه" وقد فرحت لهذا النبأ فرحاً شديداً كأنما قد أستكمل الخير الذي فعلته.. وكذلك أخبرني جو أن أورليك الكهل سطا على منزل بمبلشوك ثم قبض عليه وأودع السجن.

ولما أستردت بعض قوتي، بدأ جو يستعيد بعض كلفته معي ويخاطبني بكلمة "سيدي" ما آلمني ألماً عميقاً ولكن ماذا كان في وسعي أن أقول؟، ترى هل أبديت له سبباً يحمله على التشكك في إخلاصي والظن بأنني في الثراء أصبح فاتراً معه والفظة بعيداً عني؟

وأستيقظت ذات صباح منتعشاً وأشد عافية فمضيت إلى حجرته ولكنه لم يكن بها كما ذهب صندوقه!! أشرعت إذ ذاك إلى مائدة الإفطار لأجد عليها خطاباً كل ما جاء به:

«أما وقد رغبت عن المكث أكثر من ذلك فقد رحلت بعد أن أستردت صحتم يا عزيزي بيب وستكون خيراً من ذلك من غير جو».

«حاشية: أصدق أصدقائك إلى الأبد».

وكان رفقاً بهذا الخطاب إيصال بديني بعد أن تولى "جو" دفعه عني

ماذا بقى علي الآن سوى أن أتبعه إلى مصنع الحدادة القديم العزيز وأن أريه كيف عدت ذليلاً نادماً؟ كما كان بودي أن أذهب إلى بيدي وأن أخبرها كيف فقدت كل ما أملت فيه يوماً ما وأن أذكرها بأسرارنا القديمة في زماننا الأول التاعس ثم أقول لها: «أظنك يا بيدي أحببتي جدا في يوم من الأيام فإذا أمكنك أن تحبيني مرة أخرى نصف ذلك الحب وإذا أمكنك أن تأخذيني على علاتي وخيباتي، فأنني أرجو أن أكون أقل رداءة بما كنته قبل الآن».

وأستردت كامل صحتي بعد ثلاثة أيام فأستقللت العربة إلى المدينة ثم سرت إلى مصنع الحدادة..

كان مغلقاً ساكناً ولكن المنول لم يكن مهجوراً فقد بدت أفخم حجرة للجلوس مستعملة، إذ كانت ثلاثة ستائر ترفرف في نافذتها المفتوحة المشرقة بالأزاهير، فمضيت في هدوء إليها بنية أختلاس النظر إلى الأزهار فيي حين كان يقف خلف جو وبيدي وقد تشابكت ذراعاهما!!

بكيت عندما رأيتها وكذلك بكت هي لرؤيتي.ز بكيت أنا لأنها بدت بصحة منشرحة.. وبكت هي إذ بدوت ها منهوكاً شاحب الأسارير!!

ثم قلت:

– ولمن .. يا عزيزتي بيدي.. ما أرشقك!

– نعم يا عزيزي بيب.

– وأنت يا جو ما أرشقك.

– أجل يا عزيزي بيب يا صديقي القديم.

ثم أخذت أنقل النظر بينهما وأخيراً.. صاحت بيدي وهي تتفجر بالسعادة:

– هذا يوم زفافي فقد تزوجت جو.

ثم أصطحباني إلى المطبخ وقد غمرهما الفرح والزهو لرؤيتي والسرور بأن جئت مصادفة لأتم يومهما السعيد.. وأغتبطت بأنني لم أنبس بكلمة واحدة لجو عن أملي في الزوج من بيدي فهنأتهما من شغاف قلبي وشكرتهما في تواضع على ما عملاه من أجلي ثم أخبرتهما بأعتزامي الرحيل قريباً جداً إلى الخارج وبأنني لن يستريح لي بال حتى أسدد النقود التي حال بها "جو" دون دخولي السجن ثم قلت:

– والآن.. رغم ما أعلمه من أنكما فعلتما ذلك بدافع من القلب الرحيم قولاً كلاكما أنكما تغفران لي.

فقال جو:

– آواه يا عزيزي القديم بيب. إن الله يعلم أنني أغفر لك.. لو أن لدي ما يستوجب هذه المغفرة.

وقالت بيدي:

– والله يعلم أنني كذلك.

الفصل الحادي والثلاثون

بعت كل ما أمتلك وسددت ديوني ثم سافرت وألتحقت بهربرت في القاهرة..

وأنقضت أعوام عديدة قبل أن أغدو شريكاً في العمل، ولكني عشت سعيداً مع هربرت وزوجته كلارا، وكثيراً ما كتبت لجو وبيدي. ولم أرهما إحدى عشرة سنة إلى أن عدت في أمسية من ديسمبر إلى منزلي القديم بالقرب من مصنع الحدادة، وهناك جلس "جو" يدخن غليونه في مكانه القديم بجوار نار المطبخ وهو على غير ما كان ينعم به من صحة وقوة.. وهناك عدت مرة أخرى.. لأجلس على مقعدي الصغير وأتطلع إلى النيران وقد أمتدت ساق جو بيني وبين ركن المطبخ أشبه بالسياج.. ثم قال "جو" وقد أغتبط لأنني أجلس بجانب الطفل:

–لقد أطلقنا أسم بيب لخاطرك يا صديقي العزيز القديم ويأمل أن يشب ويشبهك ولو قليلاً.

وفي المساء خرجت لألقي نظرة على منزل مس هافيشام القديم لخاطر استيلا التي كنت قد سمعت من قبل أنها تعيش عيشة ضنك وأنها أفترقت عن زوجها الذي كان يعاملها بقسوة وضعة شديدتين.. ثم سمعت بعد ذلك بموته.

لم يكن ثمة منزل أو مصنع للجعة أو بناء من أي نوع اللهم إلا جدار للحديقة القديم.. وتحرك شبح امرأة نحوي وإذ أقتربت منه صحت عالياً:

– استيلا.

– لقد تغيرت كثيراً حتى لأعجب من أن تعرفيني!

الواقع أن صباحة جمالها قد ولت ولكن بقيت له عظمته وسحره اللذان يفوقان كل وصف.. ثم جلسنا على مقعد قريب وقلت:

– من الغريب يا استيلا أن نلتقي بعد كل هذه السنوات العديدة.. وأن نلتقي هنا حيث ألتقينا لأول مرة!! أأتترددين هنا كثيراً؟

قالت: كلا.

ثم مضت بعد صمت تقول:

– إن الأرض ملكي فهي الوحيدة من ممتلكاتي التي لم أتخل عنها.. إن كل شيء آخر قد ذهب مني شيئاً فشيئاً ولكني أحتفظت بهذه الأرض.

– وهل ستقام عليها مبان؟

– أخيراً نعم.. قد جئت لأستودعها قبل أن تتغير معالمها.. وأنت.. أما زلت تقيم في الخارج؟

– أجل!

– وهل وفقت في أعمالك. كما أنا واثقة؟

– أجل وفقت.

– إنني كثيراً ما فكرت فيك.

– وأنت تحتلين مكانك دائماً في قلبي.

– قلما دار بخاطري أنني سوف أستودعك وأنا أستودع هذه البقعة!!

ويسعدني أن أفعل ذلك.

– أيسعدك أن نفترق مرة أخرى يا استيلا؟ إن الفراق بالنسبة لي شيء مؤلم بقدر ما كان فراقنا الأخير محزناً مؤلماً.

فأجابت استيلا:

– ولكنك قلت لي إذ ذاك «باركك الله وغفر لك» فإذا كنت قد أستطعت أن تقول لي ذلك وقتذاك، فإنك لن تتردد في أن تقوله لي الآن.. بعد أن علمني ما قاسيته أن أدرك حقيقة ما أعتاده قلبك.. لقد أستذل قلبي وتحطم.. ولكن أرجو أن يكون قد صفا وأستحال إلى أفضل وأمثل.. كن طيب القلب كما كنت من قبل وقل لي إننا صديقان.

وعندما نهضت عن المقعد نهضت لأنحني عليها وأقول:

– نحن صديقان.

– وسنظل صديقين على البعد.

فأخذت يدها في راحتي.. ثم غادرنا المكان الخرب.. وفي ضياء المساء الفسيح الساجي.. لم أر شبحاً لفراق آخر بيني وبينها.



الفهرس